أعلام العرب

٨٧

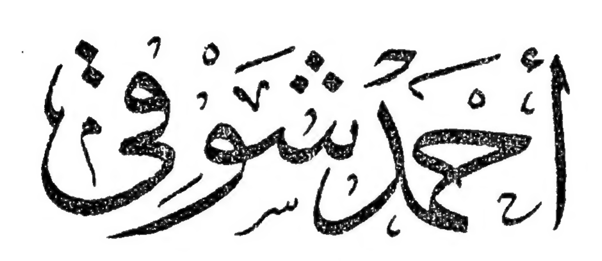


أحمد شوقي

دار
الكاتب
العربي


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أعلام العرب



تأليف : د. ماهر حسن فهمي

الهيئة العامة للتأليف والنشر
(دار الكاتب العربي)
١٩٦٩

مقدمة

لو لم تمر مصر بمرحلة الانبعاث واحياء التراث ، ثم تندفع في الصراع الذى دار بين المدنية الشرقية والحضارة الغربية ، وتحاول فى مسيرها أن تعرف ذاتها ، ما وجد الشاعر الذى يعبر عنها ، بل ما كانت فى حاجة اليه . ومن المؤكد أن مصر لو لم تنبت شوقى لأنبتت غيره ، لأن التربة الخصبة كانت فى مرحلة مهيأة ، فلا بد أن تنشق الأرض عن بذرة يعلو ساقها ليصافح النور . فشوقى هو الرمز الذى اتخذته مصر لتعبر عن واقعها فى مرحلة النهضة ، وبداية التجمع العربى ، أو قل هو القيثارة التى عزفت نشيد الألم والأمل فى مرحلة من مراحل البناء .

وعلى الرغم من الدراسات التى ظهرت توازن بين شوقى وحافظ أو تعرض ذكريات المؤلف عن حياة شوقى معه ، أو تدرس جانب الدين فى شعره أو جانب الوطنية أو الشعر الاسلامى أو المسرحيات ، فقد كان شوقى بحاجة دائما الى دراسة تحليلية . ومنذ أخرجت المطابع كتابي عن شعر شوقى الاسلامى ، شعرت بهذه الحاجة ، وطال الزمن عشر سنوات تقريبا ، ولا يصدنى عن الموضوع الا شهرة شوقى فالأديب المغمور ، كل كلمة تبعث فيه الحياة ، لأنها جديدة ، ولكن ما الجديد فى دراسة شوقى ؟ .. أأقول عاش ، وقال ؟ لا ، فلا بد من جديد في المحتوى وفى الشكل ، وانتاجه كله مطبوع ، ولا بد من جديد ، والدراسات عنه موجودة ، ولا بد من جديد، أن الدوريات هى النبع الذى لا يغيض، فقد شغل الشاعر الناس

طول عمره ، وكتبت عنه الصحف المشهورة والصحف المغمورة . كتبت عنه دفاعا وكتبت عنه هجوما . ولكن تشكيل هذه المادة الأولية معضلة أقسى ، فلو كان الرجل كثير الحركة على مسرح الحياة مثل البارودى المحارب ، أو الزهاوى رجل النوادى ، لأمكن خلق المادة على المسرح مرة ثانية فى غير عناء كبير ، وهذا ما أحسه هو حين انتهى من مسرحية « مصرع كليوباترا » وبدأ مسرحية « مجنون ليلى » ، فالأولى مليئة بالحركة ، دخلت مواقع عربية وخرجت ، وعرفت النصر والهزيمة ، ولكن « قيس بن الملوح » احتاج الى جهد ضخم لينفخ فيه الحياة . وحياة شوقى خصبة ، ولكنها خصوبة ذهنية ، فليس هناك مجال لدراستها الا عن طريق الذكرى والاستبطان النفسى والحوار . وهو تشكيل فيه خاصية الرواية أكثر مما فيه من خاصية المسرحية ، وقد كنت أفضل التشكيل الثانى ولكن هيهات .

فأنت تعرف من خلال الكتابات ملامحه صغيرا وشابا وشيخا ، وتعيش معه أفراحه وأحزانه ، وتدرك أبسط أحاسيسه وأعمق مشاعره ، وتراه يحاور ويستمع ، في البيت وفى الحياة ، في المنفى وفى مصر ، ولكنك قلما تراه يخطو خطوة كبيرة أو يتحرك حركة مفاجئة ، وهكذا كان شوقى فى الحياة ، يوم عرفه أبناء جيله ومنهم كثيرون يعيشون اليوم ويكتبون . فان رأيت الصورة لم تكتمل أبعادها فما أسهل النقد وما أشق الفن كما يقول « بوالو » .

الباب الأول

البلبل الصغير

المهاجر

عجيب أمر هذا الانسان الضارب فى أعماق الأرض وأطرافها منذ آلاف السنين ، بما يعتور نفسيته من صراع بسيط المظهر ، معقد شديد التركيب في الواقع • هو عجيب فى طموحه ويأسه وأفراحه وأحزانه وغضبه وحلمه وحله وترحاله وأمسه وغده • غير أن مركزا واحدا يدور حوله ويدور فى أكثر أحواله ، وهو الأمل • فاليأس استقرار وسكون على أية حال ، ولكن الأمل قوة محركة ، مهما اختلفت مظاهر هذه الحركة •

وليس من المهم أن يسأل المرء كيف يبدأ حياته ، ولكن من المهم أن يسأل كيف ينهى حياته . وبين هذين السؤالين مرحلة خصبة مليئة بالطموح والأمل ، عامرة بالجهد والبناء ، وبالهناءة والبقاء • والسعيد من أدمت الأشواك يديه ، وألهبت الصخور قدميه ولكنه شق طريقه فى رحلة الحياة ، الى وادى الأحلام ، فحقق أمله وبلغ مناه . وقد تتطلب الرحلة أن يهجر المرء أهله وذويه ، ويرحل وراء النبع والخصب ، أو وراء الحرية والأمن راكبا طموحه ، وتلك قصة موجات الهجرة فى كل زمان ومكان ، وتلك أيضا قصة أحمد شوقى الذى جاء مصر يحمل وصاة من والى عكا الى محمد على ، وطابت له الحياة فاستقر •

أحمد شوقى .. وينقطع النسب ويصمت التاريخ ، ولماذا يهتم التاريخ وهو ليس علما من أعلام السياسة أو الاصلاح أو الفكر أو قواد الجند ؟ .. ولكنه واحد من الأكراد الذين تجرى فى عروقهم الدماء العربية ، فهو يحسن كتابة العربية خطا وانشاء ، وان كان

لا يحسنها نطقا دون شك . هاجر بعد انهيار امارة كردستان ضمن موجة تفرقت هنا وهناك · فقد استمر الصراع على الحكم بين الأشقاء والأقارب حتى افترقت كلمتهم ، بعد أن صمدوا طويلا لايران ولتركيا وطمعوا فى العراق ، ثم أكمل الطاعون من بعد خراب الامارة (١) .

دخل المهاجر فى معية الوالى ، ثم تداولت الأيام وتعاقب الولاة ، وتدرج هو في المناصب الى أن جاء سعيد ، فأقامه أمينا للجمارك المصرية · ولم يكن من النادر أن يصل الاتراك والجراكسة وغيرهم الى المناصب الرفيعة ، وانما كان النادر أن يصل اليها المصريون . ونحن نعرف أن أحد محركات الثورة العرابية فيما بعد ، هو ضيق المصريين بهذا الحرمان من القيادات فى وطنهم · أحس أحمد شوقى اذن أن الوطن هو أرض الطمأنينة والرزق ، ما دامت هناك وشائج قوية بين أرض النشأة وأرض الهجرة · وتزوج المهاجر من فتاة جركسية ، فرزق منها بعلى شوقى المصرى المولد والنشأة ، ثم تركه شابا صغيرا ومات عن ثروة كبيرة خلفها له·

وكان من هؤلاء المهاجرين أيضا ، شاب تركى هو أحمد حليم النجده لى ، جاء من قرى الأناضول أيام ابراهيم بن محمد على ، واستعمله الوالى فى خاصته · ثم زوجه من أسيرة حرب جلبها من « المورة » وأعتقها قبل زواجها ، تلك هى « نمزار » اليونانية ، التى عملت وصيفة فى القصر زمنا ، وكانت مشهورة بذكائها ، كما كانت موضع اعجاب الوالى · وكان اسماعيل دائم الثناء عليهما يردد من حين الى حين ق « لم أر أعف منه ، ولا أقنع من زوجته ، ولو لم يسمه ابى حليما لسميته عفيفا لعفته » ولم يشأ هذا الوالى على

---

(١) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٤٨ وما بعدها .

جشعه المعروف ، أن يترك الأرملة التى كانت أثيرة عند أبيه ، تتضور جوعا مع ابنتيها ، فمنحها راتب زوجها .

وجمعت الظروف بين على شوقى وابنة « نمزار » زوجين ، فكلاهما من أبناء المهاجرين المتمصرين ، وقلما كان يتزوج مهاجر من مصرية ، وكلاهما له صلة بالقصر ، وأكثر العاملين بالقصر من هذه الطبقة الوافدة ، بل ان الخديو نفسه وافد هو الآخر .. ومما لا شك فيه أن الغالبية العظمى من المصريات فى ذلك الوقت كن جاهلات محجبات ، ولكن ذلك كان الطابع العام للمرأة المسلمة حتى الربع الأخير من القرن الماضى ، ومهما كان الأمر فان الغريب يحن الى الغريب .

استقر على شوقى مع زوجه فى حى الحنفى ، وبقى ينفق عن سعة من الثروة الموروثة كأن معينها لا يجف . وما هى الا سنوات قلائل حتى تبددت الثروة ، وأحس بالضياع وبالفقر يطرق بابه طرقا عنيفا . لو أحسن على شوقى استغلال ماله فى أحد المشروعات ، أو كان على خبرة بعمل ما ، لاستفاد ونمت ثروته ، وأفاد بلده من خبرته ومشروعه ، ولكنه لم يكن على شيء من ذلك ، وانما كان واحدا من أبناء « الذوات » الذين ورثوا الثروة دون تعب فأنفقوها فى سهولة ويسر وعاشوا من بعد يشكون الحرمان .

وفى السادس عشر من أكتوبر عام ١٨٧٠ ولد له طفل ملأ جنبات الليل بصراخه ، ولكن الليل لم يلتفت اليه ، فقد اعتاد هذه الصرخات كلما جاء الى الدنيا وليد جديد ولم يكن يدرى أنه سوف يملأ الدنيا نغما بعد حين . وأسماه أبوه أحمد شوقى تيمنا باسم جده ، عله يحظى بما حظى به من جاه فى حياته ، أو يدرك بعض أسرار نجاحه .

وكان على شوقى قد رأى منذ شهور حلما غريبا ، وعلى عادة

أهل العصر حاول تأويل الحلم . وسأل صديقه الشاعر على الليثى سمير الخديو . فى شأن هذا الحلم ، فقال له على الليثى وهو يمازحه : « ليولدن لك ولد يخرق كما تقول العـامة خرقا فى الاسلام » (١) . وها هو ذا الوليد قد خرج الى النور (٢) ، ولكن ماذا يصنع هذا الوالد المكدود بولده ، أنه لا يستطيع أن يجد عملا في القصر ، خلال تلك الأيام العصيبة ، وأكبر الظن أنه لا يقوى على عمل خارج القصر ، وكأنما العمل هو لعنة الانسان فى هذه الأرض، ولكنها لعنة لا تزول الا بالعمل . وتلك أيام عصيبة حقا ، فالأحداث

---

(١) الشوقيات القديمة ص ١٥

(٢) اختلف مؤرخو الأدب فى مولد شـوقى ، فجلهم ذكر أن ميلاده كان عام ١٨٦٨ م وجاء ذلك نقلا عن الشوقيات القديمة حين ذكر شوقى فى مقدمتها انه يحبو الى الثلاثين ، ولما كان تاريخ طبعها هو ١٨٩٨ م ، فان تاريخ ميلاده على هذا الأساس المذكور يكون صحيحا . ولكن كاتبا واحدا عنى نفسـه بتحقيق تاريخ صدور الشوقيات القديمة وهو الدكتور محمد صبرى ، فوجد أن التقاريظ المذكورة آخر الديوان تؤرخ عام ١٣١٧ وهو يقابل سنة ١٩٠٠ أو النصف الأول منها على وجه الدقة ، ورغم ذلك تابع غيره من الكتاب وذكر أن تاريخ ميلاد شوقى هو عام ١٨٦٨ م ، وكل ما استنتجه هو أن شوقى كان قد بلغ الثانية والثلاثين حين خرج الكتاب من المطبعة بغض النظر عن التاريخ الخاطىء المكتوب على غلاف الديوان . ومن الغريب أن سكرتير الشاعر نفسـه قرر فى كتابه عن شوقى أنه من مواليـد عام ١٨٦٨ ولعـل ذلك يرجع الى أن صاحب الترجمة قلما كان يعرض لسنه بل انه كان يتحاشى ذلك مع جلسائه . ومن الغريب أيضا أن حسين شوقى نجل الشاعر ذكر أن أباه حين مات عام ١٩٣٢ كان فى الثانية والستين ، ولكن أحدا لم يلتفت الى هذا التاريخ الذى ضاع فى زحمة الأحداث ، باستثناء الدكتور أحمد الحوفى فقد تنبه الى ذلك وحقق تاريخ مولده الصحيح . والواقع أن شـهادة ميلاد الشـاعر نفسـها موجودة لدى ابنه حسين شوقى وفيها ان الشاعر من مواليد عام ١٨٧٠ وقد أطلع عليها بعض البـاحثين ومنهم صـديقى لطف الله أيوب الذى يبحث في مسرحياته .

تسرع منذرة بالخطر ، حتى لتكاد تسلم الوطن الى نهاية مفزعة من الافلاس والوقوع فى أغلال النفوذ الأجنبى .

وانتشلته « نمزار » من دوامة الفكر ، فقد كانت موسرة منعمة ، وعرضت عليه أن تحتضن الوليد وتكفله ، حتى يفرج الله أزمته ، ولعلها سمعت تفسير الحلم الذى قاله على الليثى وردده على شوقى ، ورأت فى الطفل مخايل نبوغ تخبئه له الأيام . ولم يكن أمام الوالد الا أن يقبل ، وهكذا انتقل أحمد شوقى من بيت أبيه الى بيت جدته التى رعته فوق رعاية الوالدين .

تتابعت الأيام ، ونما الوليد ، وتحددت ملامحه ، وكانت الجدة كلما نظرت اليه ازدادت حنوا وعطفا ، فهو بادى الضعف ، حلو القسمات ، لا ينزل بصره عن السماء من اختلال أعصابه ، شديد الهدوء رغم أن سنه هى سن الحركة والتدمير ، ولعلها كانت تدرك أن الدماء التى تجرى فى عروقه لها أثرها فى قدرات الطفل بعد حين ، وبلغ من حنوها أن تحمل الطفل معها الى القصر الذى كانت تعمل وصيفة فيه .

« نمزار ... نمزار » ..

بهذا الاسم الاجنبى ، دعا ذلك الرجل البدين القصير ، الذى أغرق مصر فى الديون ، ومكن للأجانب فى التسلط على البلاد ، وشاد القصور ، واقتنى أجمل الجوارى ، وأنفق على حفل واحد مليونا من الجنيهات ، وقتل وزراءه غيلة ، وكان يتشبه بلويس الرابع عشر فى بذخه وأسرافه . ودخلت تتعثر رهبة من هذا الجالس فى ذلك « الصالون » الفخم الرائع الأثاث ، وقد أعجلها الصوت الرهيب عن أن تنزل صغيرها الطفل المضعوف عن كتفيها ... فلم يستنكر اسماعيل حمل الطفل ، فقد كانت جارية أبيه وأثيرة عنده ،

وليس من آداب الملوك أن يدخل عليهم الخدم حاملين أطفالا ، ولو كانوا أطفال الملوك أنفسهم ، ولكنه تغاضى .

ونظر فى عطف الى الطفل الرافع عينيه الى السماء ، وسألها عن علة عينى صغيرها فلما قالت انه يا مولاى لا يزال هكذا أبدا ناظرا الى السماء ، أخرج هذا الرجل المسرف السفيه قبضة من الذهب من جيبه المملوء به ، والذى امتصه من دماء الشعب وتقاضاه ضرائب فادحة سلبها بالسوط والسيف . فلما رأى الطفل ذلك المعدن الوهاج يتناثر أمامه على البساط الثمين ، لفته البريق الأخاذ فخفض عينيه المرتفعتين . وضحك هذا الجبار وقال لها وهى ماثلة أمامه : كلما رفع عينيه انثرى له ذهبا حتى يتعود النظر الى أسفل . فابتسمت قائلة : هذا دواء لا يخرج الا من صيدليتك يامولاى . قال : جيئى به الى متى شئت ، انى آخر من ينثر الذهب فى مصر (١) .

---

(١) راجع الشوقيات القديمة ص ١٦ ، حياة شوقى لاحمد محفوظ ص ٥/٦ .

الصبى الموعود

ـ لقد عاد شوقى باكيا اليوم ، مثل كل يوم ، أما آن لك يا على أن تنقله الى مدرسة أخرى ؟ .

ـ وماذا أنا صانع . أنه ولدى كما هو ولدك ، وأنا أعرف أن الأطفال فى عمر الزهور يدخلون المدارس النظامية فيحسون الرعاية السليمة فى كل خطوة يخطونها ، وهناك الأناشيد الجماعية والصور والرسوم ، والحدائق والموسيقى واللهو الذى لا ينتهى . ولكن ما أبعد الفارق بين هذه الصورة المشرقة ، التى ترقى الأذواق وتنميها ، وبين صورة أخرى داكنة لا اشراق فيها ، الكتاب والعريف والفقيه . يجلس الصبية على الأرض وأمامهم شيخ الكتاب يجلس على كرسى خشبى يقرأ جزءا من القرآن ، والصبية يرددون وراءه آية اية ، ويتكرر ذلك مرة ومرات ، حتى اذا أنس منهم حفظ ماردده ، بدأ يستمع اليهم ، ولا بد أن يرفع عصاه من حين الى حين فتتذوقها أيديهم وأرجلهم الضعيفة . والصبية لا يجرأون على سؤاله فى شىء عن معنى الآيات وما أكثر ما يغمض عليهم . من أجل ذلك يشقون حين يبدأ الدرس ، ويتنفسون احساسا بالراحة حين ينتهى ، ويتمارضون كثيرا ، ويكرهون أيامهم لأنها سوداء .

ـ انه لم يشك من الفقيه وعصاه ، وانما شكا من شراسة الصبية هناك ، وهو رقيق كما تعلم ، يحتمل العذاب ولا يملك الا البكاء .

ـ أعلم أنها جناية جنتيها عليه ، ولكنى لا أملك نفقات المدارس الابتدائية كما تعلمون .

ـ انه الآن فى السادسة من عمره وقد أمضى عامين فى الكتاب لم يستفد الا الآلام التى لا طاقة له بها .

ـ أن « نمزار » هِي ملجؤنا ، ولن تبخل على الصبى اذا عرفت فحدثيها علنى أستطيع نقله الى مدرسة المبتديان ، فالوسط التعليمى فيها أخف على حسه المرهف ، لأن الصغار هناك أميل الى النظامِ ، وسوف تنتعش نفسه ويميل الى الدراسة .

ـ سوف أفعل .

ـ وحين ينتهى من دراسته الابتدائية ، سوف نلتقى بنفس المشكلة ، ولن يكون من حظه دخول المدرسة التجهيزية ما لم ينل مجانية التفوق .

ـ عسى أن يفرج الله كربنا وأما الصبى ففيه ذكاء يعرفه الجميع .

كان يستمع الى هـذا الحوار بين أمه وأبيه ، فيشعر بالراحة والسعادة .. مدرسة المبتديان .. لا شك أنها صورة أخرى ، سوف يتخذ من تلاميذها أصدقاء لا يجدهم فى الكتاب ، وسوف تطمئن به الحياة ويطمئن بها كثيرا .

واذا كانت مجانية التفوق هى وسيلة دخول المدرسة التجهيزية بعد ذلك ، فسوف يفنى فى القراءة ، انه يتطلع الى المعرفة ، وكم حاول أن يسأل الفقيه فى الكتاب عن معنى الآيات « مالك يوم الدين ... الصراط المستقيم ... ولا الضالين » ولكنه فى كل مرة كان يحجم حين يجد عصا الفقيه تبحث عن فريسة . ان مدرسة « المبتديان » بعيدة عن حى الحنفى ، وسوف يقطع الطريق كل يوم ماشيا ، ولكن ما أهون ألم الجسم الى جانب ألم النفس ، وهو

لم يعد طفلا ، سوف يعرف الطريق ، وسوف يجد فيه لذة وهو يشاهد أحياء جديدة وحياة جديدة .

لقد تحقق ما كان يحلم به ، فلم يعد يعبأ بطول الطريق فى الذهاب والعودة وانما أصبح يعيش الحلم ، فقد حوله الى واقع سعيد ، ترى ايحقق حلمه الجديد فيتفوق لينتقل الى المدرسة التجهيزية ؟ ان زملاءه يتحدثون عنها حديثهم عن أمل كبير ، وهو يبذل كل جهد ليمسك بهذا الأمل . وتلاميذها فتيان لهم شوارب ولحى ،تخطوا هذه المرحلة التى لا يبين فيها الصبى من الصبية ، وابتسم لهذا الخاطر .

كان يقرأ شـــعر البارودى فيحس بانفعالات غريبة وطرب عجيب ، ولكنه لا يقدر على الاستمرار فى تتبع شعر البارودى ، فأمامه الامتحان الذى سوف يحدد مصيره ويسير به الى الطريق التى رسمها لنفسه أو الى طريق غامضة كل الغموض لا يعرف معالمها ولا يتبينها . وانكب على القراءة انكبابا ، فالعمل وسيلة تحقيق الأمل . انه على موعد مع القدر خلال الأيام القادمة ، نقطة تحول ، نعم نقطة تحول .

وعندما هنأه أبوه بالنجاح وبالتفوق ، لم يكن هناك أسعد منه ، بل لم يكن بيت فى الحى أسعد من بيته ، لقد آن لجدته أن تستريح من عبثه . انه يعيش مرحلة تفتح حقيقية ، ألم يقل انها نقطة تحول ؟ لقد زادت فرحته بهذه الهدية التى تلقاها من جاره وصـــديق والده ، مجموعة قيمة من الكتب بينها كتـــاب رائع التصوير . وهذا والده دائم الحديث عن هذه الأسرة « حسيب بك » وشقيقه « عطا » ، وهما في الواقع كما يصفهما أبوه سماحة وكرم أخلاق . لحظات مرت سعد فيها بالهدية ، ثم اقبل والده يخبره أن « حسيب » بعث يسترد الكتاب المصور لحاجته اليـه ، فخمدت نشوته ، ثم سالت دمعة أججت انفعاله ، فأخذ يردد :

حسبت حسيبا زاده الله رفعـــة
لمـــا نظـرت عينـاى منه أخا عطا

فخالف ظنى ما رأيت فانـــه
لكالدهر ســلاب من الناس ما عطـا

وانقلب حزنه فرحا بالبيتين ، وتناقلتهما ألسن الجيران من مندرة الى مندرة على ما فيهما من خطأ (١) . وشـــجعه ما قوبل به البيتان من الاعجاب على الاستمرار فى محاولة النظم ليظفر بمزيد من الاعجاب . لقد التقى بملكة الشعر على أجنحة الخيال ، فمنحته كل شيء ، وشغف بها حبا من ذلك الحين . الشعر ، انه موهبة وملكة يلتقى بها الموعود ، مثل موهبة الصوت الجميل ، وان كان كلاهما يحتاج الى طويل صقل وطول تمرس ورعاية ، حتى لا تشيخ الملكة قبل الأوان ولا تزور عن الشاعر الى غيره ، وطول الصقل يعنى ادمان القراءة فى الشعر خاصة ، والتجارب فى الحياة عامة .

وبدأ يقرأ الأدب بشراهة ، ويحيا فى أودية عبقريته « يأسر الطير ويطلقه ، ويكلم الجماد وينطقه ، ويقف على النبات وقفة الطل ، ويمر بالعراء مرور الوبل » (٢) . ان فخر أبى فراس يزيده حمية ، وحكم أبى العلاء تأسر لبه ، ومواعظ أبى العتاهية تبكيه ، وهو يحب فى ابن خفاجة وصفه الدقيق للطبيعة الثرية ، وفى البهاء زهير تدفقه المعجز ، ولكن أبا الطيب هو نبي الشعر وحده ، وأكثر ما يجذبه اليه ويشده شدا لا سبيل الى الفكاك السريع منه ، هو طموحه الغلاب ، الذى دفعه الى اقتحام الصعاب متنقلا من بيئة الى بيئة وراء أمانيه التى لم يجد سبيلا الى تحقيقها فتغنى بها

---

(١) الشوقيات المجهولة لمحمد صبرى حـ ١ ص ٣٥ .
(٢) الشوقيات القديمة ص ٦ .

وهو يشقى ، وذلك الغناء العـــذب الحزين ، ثم قدرتـه القـــادرة لا على أن يصف الحزن والألم ، ولكن على أن يجرع قارئه الألم والعذاب معه .

لماذا لا يجرب القول فى زملائه وفى مواد الدراسة ؟ .. أن رفقاءه يستشفون من وراء أبياته هنا وهناك نبوءة صغرى ويدفعونه الى مزيد من القول . وأساتذته يتغاضون عنه اذا حضر متأخرا لأنهم يغفرون لكل تلميذ متفوق ، ولكنهم لا يعلمون أن أكثر سهرة فى قول الشعر . وعندما يذهب فى الغد ، فسوف يفاجىء الجميع بقصيدته الجديدة .

واعترضه تلميذ منتفخ الوجه بادى الثراء والزهو فى فناء المدرسة ، بينما التف جمع من التلاميذ حوله وهم يتمازحون ، وابتدره هذا الزميل كأنما كان ينتظر قدومه :

ـ ماذا أعددت لامتحان اليوم ؟

ـ سوف أجيب شعرا .

ـ أنسيت أنه درس في الجغرافيا لا فى الشعر ؟

ـ بل أذكر .

ـ بالأمس سألتك أن تبدل ساعتك المستهلكة لتكون أهلا لصداقتنا فقلت شعرا أغاظنى :

لى ســـــاعة من معـــدن لا يقتنيهـــا مقتنـــن
تعجـــل دقـــا وتنى مثـــل فـــؤاد المدمـــن

فهل نظمت الأطلس اليوم ؟

ـ نعم :

افريقيا قســـم من الوجود فى شـــكله أشـــبه بالعنقود

وذلك العنقود فى الماء انغمر ما أملح الماء وما أحلى الثمر
مدت اليه يدها أوربا من فوقه كمن يريد الحبا
وآسيا بالجنب كالمحتال تنقصه من جنبه الشمالى
وبين هذين ترى القنالا يتصل الماء به اتصالا
أنشاه اسماعيل عنوان الظفر فوقع الحافر فيما قد حفر

ـ وماذا تقصد بالحافر ؟ بمن تعرض ؟

ـ بك !!

وضج التلاميذ بالضحك ، بينما سار شوقى وهو يكتم ضحكته ، ويسمعه سخرية التلاميذ بزميلهم الذى احمر وجهه المنتفخ خجلا . وعندما انفض الجمع ، تبعه زميله وقد زالت عن وجهه حمرة الغيظ ، فتلقاه شوقى باسما متسائلا :

ـ انك تحاول قول الشعر مثلى ، فلماذا لا تقول فى كما أقول فيك ؟

ـ أعترف لك بالتفوق ، ولكن أصدقنى القول ، الا يوجهك أحد ؟

ـ الحقيقة ان الاستاذ الشيخ حسين المرصفى يقرأ معى كتاب « الكشكول » ويحاول أن ينمى ذوقى . بالأمس كنت أقرأ عليه صفحات من الكتاب ، فلما بلغت هذين البيتين :

ومخرق عنه القميص تخاله بين البيوت من الحياء سقيما
حتى اذا حمى الوطيس رأيته عند اللواء على الخميس زعيما

استخف الشيخ الطرب ، وهو ناقد ذواقة ، وطلب منى أن أشطرهما ، فقلت :

ومخرق عنه القميص تخاله
ملكا تنم به السماء كريما

يحمى الحمى عف اللواحظ والخطا

بين البيوت من الحيـــاء سـقيما

حتى اذا حمى الوطيس رأيتـــــه

نارا عـلى نــار الوغى وجحيمـا

واذا القبـــائل أطبقت ألفيتـــه

عنـد اللواء على الخميس زعيمـــا

فاستحسن البيتين الأول والثانى ، وارشدنى الى مواضع التكلف من الثالث والرابع ، ثم اقترح على ان اجرب القول فى الحكمة ففكرت فى أبى العلاء وحكمه ، ثم قلت :

قصـــارى العيش أن يذهب ان حــــلوا وان مــــرا

فان شـــئت فمت عبـــدا وان شــــئت فمت حــرا

فأعجب بهما الشيخ ، وحثنى على قول الشعر فى بعـض الأغراض ، ثم أطلعنى على الشعر الذى تضمن هذه المعانى ، ولفتنى الى ما أحسنت فيه وما قصرت فيه أيضا .

اللحن القديم

قطع شوقى الطريق من حى الحنفى حيث يسكن الى باب الشعرية بعد ان انتقلت مدرسة الحقوق من مقرها بسراى مصطفى فاضل بدرب الجماميز الى المقر الجديد بدر البدراوى الكائنة بشارع سوق الزلط . وكان يفكر فى نصيحة استاذه « يحيى ابراهيم » أن ينتقل الى القسم الجديد الذى انشىء للترجمة . لقد دخل مدرسة الحقوق . لأن رجل القانون الناجح، ينبغى أن يكون بليغ الكلمة ، وبلاغة الكلمة فيها قوة الحجة ، فليست مواد القانون وحدها هى القادرة على الاقناع ، ولكن ماله ولهذا ، وهوحيى ، فكيف يجابه الجمهور فى قاعات الدفاع ؟ .. ورجل القانون اجتماعى بطبيعة عمله ، وهو أكثر ميلا الى الانطواء، وربما كان أكثر الفنانين على هذا النحو . كأنما خصصتهم الطبيعة للتأمل والبحث عن ذواتهم . ان ناظر المدرسة نفسه قد رفضه لصغر سنه ، لولا تدخل الوكيل « يحيى ابراهيم » الذى اقنعه بتشجيع صغار السن . أما قسم الترجمة ، فيكاد يضمن العمل لطلابه بعد التخرج ، لأن الحكومة تحتاج الى موظفين تخاطب بهم قناصل الدول الأجنبية وتكاتبهم ، ومن أجل ذلك أنشىء هذا القسم ، فالأفضل اذن أن ينتقل اليه .

ودخل فناء المدرسة الذى يموج بالطلبة ، ولكنه وحده الفتى النحيل الهزيل ، القصير القامة ، وان كان وسيم الطلعة ، بعيون متألقة ولكنها متنقلة دائما ... اذا نظر الى الأرض دقيقة واحدة ، فللسماء منه دقائق متمادية ، واذا تلفت صوب اليمين،

فلا يلبث أن يرمى ببصره نحو الشمال . وهو مع هذه الحركات المتتابعة المتنافرة ، هادىء ساكن وادع ، كأنما يتحدث بنفسه الى نفسه ، أو يتلاغى مع عالم الخيال ، لا يعبث مع العابثين ، ولا يلهو مع اللاهين . اذا مشى سمعت لنعله احتكاكا بالأرض يدل عليه ، قصير الطربوش ضيق بعض الشيء ، كبير الرأس صغير القدمين صغر أقدام الأطفال ، مستقيم الأنف مرتفع الأرنبة تخاله أنف أرمنى ، دقيق أصابع اليدين دقة مرهفة تكاد تلحقها بأيدى الصغار (١) . وما أن تقدم فى الفناء خطوات حتى أقبل صديقه « أحمد زكى » ومعه جريدة « الوقائع المصرية » قائلا :

ـ لقد نشرت الوقائع قصيدتك ياشوقى ، وكنا نحسبها للشيخ محمد البسيونى .

ـ وما رأيك فيها ؟

ـ الحقيقة أنها من روح البارودى ، أنظر الى قولك فى مقدمتها :

هى الجزيرة فاحذر فتنة النظر
وكيف والحب يأتى غير منتظر

أرض ترى الأسد صرعى فى ملاعبها
فكل ماش عليها راكب الخطر

أمسى وأصبح مشغوفا بروضتها
مقيد القلب فيها مطلق البصر

ما كنت أدرى وأسد الغاب ترهبنى
بأن سكنى الردى في أعين البقر

---

(١) ابولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٨٢ ، حياة شوقى لاحمد محفوظ ص ٢٠/٢٢ .

وقد سمعت من قرأها يكبرها ، وكأن الناس قد عادوا بذاكرتهم الى الحان البارودى وأناشيده التى كان يعزفها لهم منذ سنوات ، فكم تغنى بالجزيرة وملاعبها ، قبل ان تطوح به النوى الى المنفى فى أرض سرنديب بعد الثورة ، ليعيش فى موكب الأحزان على أمل العودة .

ـ ان صاحب الفضل فى نشرها هو الأستاذ البسيونى .

ـ انه معجب بك اعجابا لا حد له ، يرى فيك بوادر مواهب ، وقد أخبرنا كما أخبر كل الفرق المتقدمة أنه يعرض قصائده عليك قبل ان يرسلها الى الوقائع المصرية ، وانك تشير عليه بمحو هذه الكلمة وتصحيح تلك القافية ، وحذف هذا البيت وتعديل ذياك الشطر ، وهو يغتبط بقولك ، وينزل على رأيك ، دون أن تأخذه العزة بالأثم ، أو تغريه الكبرياء بانكار الفضل الذى منحه الله للطالب . وأنت تعرف أنه يدرس لنا فنون البلاغة فى كتاب من تصنيفه ، أما خارج المدرسة فهو مشهور بقصائده فى الخديو كلما حل موسم أو أطل عيد ، وهو أمام له فى الصلوات الا صلاة الفجر . وقد سمعنا أنه تحدث بنبوغك المبكر الى الخديو ، وأفهمه أنك خليق بالرعاية .

ـ نعم ، وقد دعانى الخديو وهنانى بثقة الاستاذ ووعدنى أن يجد لى عملا فى السراى بعد الانتهاء من دراستى ، كما وعدنى أن يجد عملا لأبى . ومنذ أيام خرجت راكبا حمارا أبيض الى وجهة أبغيها ، وقد هطل المطر ، فلما عدت قافلا الى بيتى سلكت ميدان عابدين ، فأبصرنى الخديو ، وهو فى شرفته بالقصر ، فنزلت عن الدابة وترجلت فأرسل فى استدعائى ، فلما وصلت تظاهر بالغضب قائلا : « أليس لى أن أنظر من شرفة دارى حتى تترجل عن حمارك وتضطرنى أن أنزوى ؟ » قلت : عفوا ، هكذا أدبنا الأوائل حيث قال قائلهم :

وإذا المطى بنــــا بلغــن محمــــدا
فظهورهن عــلى الرجــال حـــرام

فقال : انكم معشر الشعراء تتفاءلون بالغيوم ، وهذا اليوم من أيامكم ، ثم أبلغنى تعيين أبى مفتشا فى الخاصة .

ـ ان الخديو فى حاجة الى كل صوت ، بعد المؤامرة التى تزعمها وراحت مصر ضحيتها .

ـ ضلة زانها الشقاء لمصر .

ـ ولكنه قد يحاول ان يستغل قلمك .

ـ أنا لا أبيع قلمى .

ـ فكيف ترى العرابيين اذن ؟

ـ لا يلم بعضنا بعضا، ولو لم يستمع عرابى الى رأى ديلسبس، ما تمكن القوم من احتلال مصر ، فان للجيش أمجادا في حرب المورة وكريت وغيرهما ، ولو صنع ذلك لاستحق الحمد والثناء .

ـ هذا صحيح ، ولكن قل لى ، ما سر هذا الغزل ، هل أحببت ؟

ـ قط .

ـ اذن فهو لحن قديم ، ألم ينهكم المتنبى عن الغزل فى مطالع القصائد حين قال :

اذا كان مدح فالنسـيب المقـــدم
أكل فصـــيح قال شــعرا متيـــم

ـ ومع ذلك فهو يبدأ كثيرا من قصـائده بالغزل ، وقد ترسمت خطاه ، أليس نبى الشعر ؟

ـ ان ألسنة الخلق أقلام الحق ، ولو صدقت نبوءة الاستاذ البسيونى ، لكنت نبيا جديدا للشعر .

فى فرنسا

عوت الباخرة ، وتكاثر الموج الصاخب ، ثم أقلعت ، وبدأ على ظهرها شاب غارق فى ذكرياته سابح فى تأملاته ، بين أمسه وغده ، وكلما فكر فى الأمس أحس بشيء من الغبطة ولكنها لا تخلو من الحزن الشاحب ، وكلما فكر فى الغد ، أحس بالرهبة مشوبة بالأمل . انه يسترجع ذكرى الأيام الأخيرة ، فيمر أمامه شريط من الاحداث ، يبدأ يوم عرف البطالة عقب تخرجه ، ثم وعد الخديو له بارساله الي فرنسا لاستكمال دراسته ، فتخير القانون الذى درسه عامين من قبل ولكنه قرر أن يجمع بين القانون والأدب على قدر ما يحتمل ويطيق .

ويلح يوم الرحيل على ذاكرته الحاحا ، فيذكر والده ووالدته وأخته الكبرى التى تزوجت حديثا ، ويذكر جدته التى أحبها وأحبته وخيل اليه أنها أكثر الجميع احساسا بالفراق كأنها تتذكر يوم فراقها لأهلها ، فتفجرت كوامن مشاعرها بالغربة ، ولكنه يرتد فى لحظة الى حاضره والى غده ، والتعرف عن قرب على الحضارة الغربية أمل كبير ، ولكن هذه أول مرة يركب البحر فيها .

ثم رست السفينة فى ميناء « مارسيليا » فأنتشلته من ذكرياته . وخلع الشاب طربوشه ولبس القبعة ، فهو لا يتمسك بالموروث ، ويبقى القديم على قدمه ، ولكنه مستعد لكل ما هو عصرى ، ما دام لا يتنافى مع قيمه ومبادئه .

وهناك على الشاطىء ، كان فى انتظاره مدير الارسالية ، فرحب به ، وصحبه الى « مونبلييه » وهى مدينة صغيرة حالية

بأشجارها ومبانيها الجميلة ، وكثرة الدعة في أفيائها وهوائها الطيب ، وروحها المفراح ، وما أكثر ما تمنى الهدوء والجمال . لقد صافته الأيام .

ودخل مدرسة الحقوق بجامعة مونبلييه ، وكان العام الدراسي قد بدأ منذ فترة ، ولكنه كان قادرا على استرجاع ما فات بجهده ، وهو يعرف ان « قاسم أمين » كان هنا من سنوات قليلة وكان موضع اعجاب أساتذته ، وأن غيره من المصريين ، لم يصرفهم اللهو وبهرجة الحياة عن واجبهم المقدس ، وها هو ذا يضع لبنة أخرى فى بناء الجسر الذى يصل بين الحضارتين الشرقية والغربية ، حيث تنصهر المدنية انصهارا قويا فى بوتقة الزمن وتتمخض عن مستقبل الأكثر اشراقا للانسانية كلها .

طالما أحب العزلة ، وقد حسب أنه سوف يستمتع بعزلة يبحث خلالها عن نفسه الخصبة التى لم تنبت بعد كل زهورها ، ولكنه أحس بلذعة الحرمان ، فهو ها هنا محروم من الصلات الأسرية ، يحس بالوحدة الموحشة ، فلا بد أن يخرج من عزلته ويختلط بالطلبة الفرنسيين ، يتخذ منهم الخلان والأصحاب ، وما يكاد يلمح طالبا مصريا ، حتى يدفعه الحنين اليه ، وهكذا أصبح على أبو الفتوح (١) أخا له فتجاوروا فى المسكن ، وطاب له الصاحب والصحبة ، كما طابت الأيام .

ويمر العام ويقبل الصيف ، فيشتاق الى أبيه وأمه ، ويرغب فى العودة الى مصر ، فهو كالطائر يحن الى وكره ، ولكن طلبه يجابه بالرفض ، ويتحير قليلا ، ويتملكه السأم من كل شيء حوله ، غير أن الدعوات ما لبثت أن توالت عليه من رفقائه الفرنسيين ليقضى أياما من العطلة فى ضيافتهم ، ولم يكن أمامه

---

(١) أصبح وكيلا لوزارة المعارف ، ومات شابا عام ١٩١٤ ورثاه شوقى .

الا أن يستجيب لدعواتهم ، فماذا يصنع بأيامه ؟ انها فرصة على أية حال يشاهد فيها مدن الجنوب وقراه ، ويتعرف على جوانب من الحياة الغربية لم يسعفه وقته من قبل حتى يراها . وأكثر ما شاقه فى تجواله الممتع ، جمال الريف الفرنسى ومعالم الحضارة التى وصلت الى أقصى القرى ، والفلاح الفرنسى فى داره ومزرعته. شتان ما بينه وبين الفلاح المصرى .. خاطر خطر بباله ، ورغم ذلك فهو فى فرنسا يشكو نصيبه من الحياة ، ليته رأى الفلاح المصرى ، اذن لأطبق فمه على شكواه .

وأقبل عام جديد وهو نضو فراق ، ولكن الأحداث تشتده شدا ، فما لبث الخديو توفيق أن مات ، وتولى الحكم ولده الشاب عباس حلمى ، وبدا أنه واسع الأمل يريد أن يكون ملكا حقيقيا لا دمية فى يد الاحتلال ، ومن هنا بدأت الأمة تتجرأ على مناهضة الاحتلال ، كما بدأ أن الحركة الوطنية التى تبناها « على يوسف » فى جريدة « المؤيد » قد لقيت الرعاية ، وبدأت فى الانطلاق .

والتقى بصديقه على أبو الفتوح فوجده أشد تحمسا منه ، يريد أن يصنع شيئا ، وأن يرتفع الى مستوى الاحداث ، يشاركه رأيه فى ضرورة العمل الوطنى . وفكر على أبو الفتوح في انشاء جمعية تجمع كلمة المصريين ، وتعرض وجهة نظرهم أمام المجتمع الفرنسى ، ورآها خطوة هامة فى الطريق الصحيح . فوافقه على تفكيره ورشحه لرآستها ، وهكذا تكونت « جمعية التقدم المصرى » بمدينة مونبلييه فى شهر مايو عام ١٨٩٢ . واستمر أعضاؤها يزاولون نشاطهم الى أن نما عددهم ، فطلبوا التصريح الرسمى بوجودها ، وتم ذلك .

ثم أقبل الصيف وتفرق الصحاب ، فسافر على أبو الفتوح

الى مصر ليقضى العطلة ، ورحل هو الى انجلترا فى سياحة نظمتها ادارة البعثات فى باريس . وتنقل بين مدنها ، فرأى التطور الصناعى الهائل ، والحركة التجارية الضخمة فى لندن ، وهو لم يعش الا فى « مونبلييه » ، فاحس ان علامات الدهشة قد طبعت ملامح وجهه فى هذا التجوال . ولكن جو لندن المتقلب ، والملىء بدخان المصانع كان باعثا للضيق ، فلم يلبثوا أن رحلوا الى الشمال حيث قضوا بقية الصيف ، ولم تبق فى ذاكرته صورة أشد انطباعا من قصر « وندسور » الذى هجرته الملكة فكتوريا ، فحمله الخيال الى مراقد الفراعنة وقد نقل ما فيها الى المتاحف ، وتساءل عن البنيان الكبير ـ رمز الماضى ـ كيف مآله ؟ (١)

ثم يعود الى باريس ، فيستقر بها ، بعد أن انتهت دراسته فى مونبلييه ، ولا بد أن يستكملها فى العاصمة الفرنسية . الا أن وباء الكوليرا الذى انتشر هنـاك في ذلك الوقت ، افزعه واطفأ ابتسامة الرضا التى علت شفتيه . . وكيف يحذر المرء فى كل خطوة يخطوها وكل شربة ماء يشربها وكل فنجان قهوة يذوقه ، بل كل شىء فى كل وقت . واشتد الوباء ، واصبح الحذر لا يغنى عن القدر ، كل يوم يسقط من حوله الكثيرون ،وينفض الطب يديه منهم ، وتحملهم عربات الموت دون عزاء . وزحف الوباء ، فسقط صريعه بين الحياة وبين الموت .(٢)

انها لحظات يعود اليه وعيه فيها ، فيدرك كم هى حلوة هذه الحياة ، وكم هو بغيض هذا الموت . وتتوالى على مخيلته صور شديدة للتشاؤم ، فهو يدرك ان الموت نهايته ولكن مـاذا وراء النهاية ؟ أين ذهب الذين ماتوا منذ بدء الخليقه ، ثم ماذا عن كأس المنية نفسها أمرة هى ؟ ولم يخافها الناس ؟ أحبـا فى

---

(١) مذكرات بنتاءور ص ١٧ .

(٢) الشوقيات المجهولة ج ١ ص ١١ .

الحياة أم خوفا من المجهول الذى وراء العدم ؟ ثم تصفو نفسه بعد ركودها فيتذكر قول المتنبى وهــو محموم « تمتع من ســـهاء أو رقاد » .

يقول لى الطبيب أكلت شيئا وداؤك فى شرابك الطعـــام
وما فى طبــه أنى جـــواد أضر بجســمه طول الجمام

وتزداد أوقات اليقظة ، ثم تنقشع الحمى ، فيقوم ضعيفا مهزولا ، ولكن الطبيب هذه المرة كان أكثر ادراكا لنفسية مريضه فنصحه بالرحيل الى أفريقيا ، ليشغله عن نفسه وعن احساسه بالغربة ، فوقع اختياره على الجزائر . وهناك ضمه الجو الشرقى بين ذراعيه ، فاحس بالسكينة خاصة حين رأى أصحاب المقاهى وعمالها هناك من المصريين . واسعده ان يجد حركة عمرانية كبيرة وآثار التمدن والرقى ، بقدر ما ساءه ان يجد مظاهر التفرنج تسرى هنا وهناك ، والاعراض عن اللغة العربية فى البلد العربى . ولكن حظ مصر لا يقل عن حظ الجزائر من تلك السوآت ، ألســـنا كلنا فى الهم شرق ؟ ان أربعين يوما قد مرت مسرعة عجلة لا تتأنى ولا تتوقف فى مسيرها ، وآن له أن يعود الى باريس بعد ان أسترد عافيته ، فما ينبغي له أن يتخلف أكثر من ذلك ، خصوصا وانه فى السنة النهائية ، وليشغل نفسه كلما احس بشىء من الفراغ ، فهو فى باريس المدينة الصاخبة ومركز الحياة الفكرية ، وهو الى اليوم لم يتحرك الا فى دائرة ضيقة ، فلتتسع الدائرة حتى تشمل الحياة .

يبدو أن رد الفعل كان قويا ، لقد كان على شفا الهاوية وها هوذا يعود الى الدنيا ، اليس من حقه ان يترع الكأس ويشربها مع الشاربين ، بدلا من ان يغنى للناس بشعره ويظل وحده خاوى الكأس وهم يملأون ؟ ان اللذات تعرض عليه عرضا شديد الاغراء

فى هذا المجتمع الباريسى الصاخب ، وهو شاعر فنان رقيق الاحساس مرهف الشعور ، لا يقوى على ضبط نفسه أمام المغريات ، فى « غاب بولون » وفى غيرها ، ولكن ضميره الدينى لا يدعه أبدا يهنأ باللذة الخالصة ، فهو دائم الحيرة ، موزع النفس (١) .

ويسوقه وجدانه المصرى الى المتاحف ومناطق الآثار ، هنا متحف اللوفر ، وهناك البانتايون حيث يرقد نابليون ، وهذا هو قصر فرساى بتماثيله العديدة وحدائقه الضخمة ، ولكن أروع ما فيه هو رواق المرايا ، فرسوم السقف تحكى فى أسلوب ملحمى سنوات الانتصار أيام لويس الرابع عشر . ما أجدرنا اذن أن نسجل انتصارات المصريين فى هذا النفس الملحمى . ان آثار مصر لا تفارق ناظريه ويلح عليه نفس السؤال لا يبرح مخيلته ، ماذا بقى لنا فى حاضرنا من هذا الماضى العجيب ؟

ان الامير الشاب يبدو وطنيا متحمسا ، ولكن العمل السياسى ينبغى أن يسهم فيه كل فرد على قدر ما يستطيع ، فهو مثلا يستطيع عن طريق الكلمة أن يؤدى دوره وقد يكون هذا الدور مباشرا فى اثارة انفعالات الجماهير ، وقد يكون غير مباشر فى عرض الماضى المجيد الذى نسيه الناس بأسلوب جديد ، أو غير ذلك من ضروب التعبير وحمل أمانة الكلمة ، وهو هنا فى فرنسا لا يقوى على اثارة الجماهير حتى لو حاول ، فليس أمامه الا الطريق الثانى .

وانتشلته من هذا التفكير كله ، دعوة صديقه على أبو الفتوح الى مواصلة الكفاح فى « جمعية التقدم المصرى » والعمل على انشاء فروع لها فى باريس وفرساليا وجنيف وغيرها ، حتى تضم

---

(١) شوقى وشعره الاسلامى (راجع الفصل الثانى) .

كافة القوى الوطنية ، والتفكير فى اخراج صحيفة باسم الجمعية تعبر عن أفكار الاعضاء وتكون لسان حالهم ، وعقد الاجتماعات الدورية لتبادل الآراء . انه تفكير واع من هذا الشاب الصاعد والوطنى المتحمس الغيور .

وصدر العدد الأول من مجلة « التقدم المصرى » فى ١٩ مارس سنة ١٨٩٣ يصور الخطوات الأولى للجهد الكبير ، تحت عنوان « جمعية التقدم المصرى » : (اسم جمعية تأسست بمدينة مونبلييه من أعمال فرنسا في شهر مايو سنة ١٨٩٢ بهمة الوطنى المناضل على أبو الفتوح أحد طلبة الحقوق بتلك المدينة .. آلى على نفسه أن يعمم هذا المشروع الجليل بين جميع المصريين بفرنسا ، فتشعبت هذه الجمعية فى أهم نقط فرنسا . فانشىء لها فروع بباريس ، تحت رئاسة رب القريض وأخى الأدب سحبان الفصاحة وقس البلاغة أحمد أفندى شوقى المصرى « أحد موظفى السكرتارية ـ ادارة التحريات الخديوية ـ ونزيل باريس الآن » . ووكالة اللوذعى الاديب الشيخ محمود أبو النصر المصرى من متخرجى مدرسة دار العلوم الخديوية ، ومدرس العلوم العربية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس الآن ، وكلاهما من الوطنيين المشهود لهم بقوة الباع ، وسعة الاطلاع ، وآخر بفرساليا وثالث بجنيف وهلم جرا) . وتوالت اعداد المجلة ، تحكى قصة نجاح الجمعية وأعضائها فى المجال الوطنى وفى مجال الدراسة ، وتحكى عن اجتماعات الجمعية المركزية ، وحضور مصطفى كامل بعض هذه الاجتماعات أثناء وجوده بفرنسا ذلك العام . لقد لفت الانظار اليه بكلمته النارية وتوطدت صداقته بشوقى منذ ذلك الحين .

ولكن البلابل لا تكتفى ببناء أعشاشها ، فلا بد لها أن تصدح بالنشيد ، وهكذا أرسل شوقى الى « الأهرام » قصيدة بعنوان : تهنئة بشهر الصيام « مليئة بالمغامز ارتفع فيها صوته الى

السماكين ، كأنما يدرك ان بينه وبين قرائه مدى شاسعا ، فلن يستمعوا اليه اذا ما انطلق صدره بكلماته الحائرة ، ولكنهم يصغون اليه اذا ما طغى صوته على صرير الاقلام ، وأصوات السمار ، وملق المنافقين · ان الكلمة القوية المتفجرة تطرد اغراء النوم ، فلتكن كلماته باعثة لليقظة ، وتلك رسالة القلم فى يده .

هذه مصر جاءها الدهر يسعى
وهو يا طالما جفاها وصدا
ليس للدهر من وفاء ولكن
هاب فيها العباس أن يستبدا
صاحب النيل للبريه أيه
حرر النيل للبرية وردا
وارفع الصوت ان عصرك حر
لن يرى من سماع صوتك بدا
انما الملك ان تكون بلاد
وتصيب البلاد بالملك مجدا
ومن العلم ان يزور بلادا
عهدتها له الخلائق مهدا
قل لراج ان يسترق يراعى
انا لا اشترى بذا التاج قيدا
نومة السيف قد تكون حياة

ورأيت اليراع ان نام أردى (١)

وتتنوع أنغام أناشيده ومعزوفاته من القوة الخطابية الى الهمس التصويرى ، ومن مجال السياسة والآثارة الى مجال

---

(١) الاهرام ١٨/٣/١٨٩٣ .

المجتمع والتنبيه ، فالقضية ليست قضية جلاء وحسب وانما هى اضخم بكثير ، أنها قضية الشعب كله وتحرره من الاستبداد والفقر والجهل ، وليس فى مصر من اعطى كل شيء وفقد كل شيء سوى الفلاح الذى روى الأرض بعرقه ودموعه ، فيغنى له :

قد مثلوا فى صورة مزوقة … كأنها قصيدة منمقة
رسم مايك محكم التمثيل … بصولجان المجد والاكليل
وتحته فى سلم المقام … شريف قوم شاكى الحسام
وكاهن يليه اسرائيلى … أمامه الأموال فى زنبيل
وعسكرى شاهر الحسام … وسائل منحدب القوام
وتحتهم جميعهم فلاح … فى كيسه محصوله المباح
ودون كل صورة عبارة … تفيد ما تعيى بها الاشارة
يقول فيها الملك انى السائد … فيكم ، والشريف انى القائد
والكاهن الثانى أنا اصلى … لاجلكم فريضتى ونفلى
والاسرائيلى يقول الراجح … انا عليكم حيث انى الرابح
والعسكري اننى أحميكم … والسائل المكدود استعطيكم
ويضرع الفلاح حسبى ربى … اطعمكم جميعكم من حبى
ينهكنى حملكم الثقيل … وليس عندى لكم جميل (١)

انها ملكة الشعر التى أسرت لبه وآن له أن يفرغ لها بعد أن كان موزع النفس في كل اتجاه ، فقد انقضى العام الدراسى ، وظفر باجازته الدراسية ، وأبى عليه الخديو الجديد ان يعود الا بعد ستة أشهر يفرغ فيها لدراسة الحياة الأدبية فى فرنسا . وقد تفرق رفقاؤه فى الجهاد فمن راحل الى أوروبا ومن ذاهب الى مصر فليس أمامه اذن الا الشعر .

---

(١) الشوقيات المجهولة ص ١٤، ١٥ .

كان مقهى داركور فى ميـــدان الســـوربون بالحى اللاتينى ، هو مكانه المفضل ، حيث يقرأ دائما جريدة « الطان » وفى هذا المقهى التقى مرات بالشاعر الفرنسى الشهير « فرلين » الذى كان لا يكف عن الشراب لحظة ، وكانت الخمر تتساقط على ذقنه فلا يعنى بمسحها ، ويمر به طلبة السربون فيحيونه برفع قبعاتهم ولكنه لا يشعر بهم فهو دائما مستغرق فى ذهوله سابح فى خياله . أنه شاعر رمزى غارق فى الذهول وفى الغموض معا . أليس شعر الفرددى موسيه الرومانسى الحالم أكثر تأثيرا فى نفــوس الشرقيين ومع كل هذا فهو لا يستطيع ان يكون نسخة من غيره أنهيستطيع التجديد ولكن فى تؤدة فالطفرة غير مستحبة وقد سبق له أن حاول ذلك حين ارسل قصيدته « خدعوها بقولهم حسناء » فلم تنشر . فتأكد لديه ان المجابهة بالجديد لا يطاق لقاؤها وتؤخذ باطراف البنان . ان الجديد فى الموضوع ممكن بل واجب أما في الاطار وفى الاتجاه فتلك مسألة أخرى . ومن أجل ذلك تقبل الناس الحكايات على ألسن الحيوان ، التى نظمها للاطفال فقد اهمل الشعراء العرب باب الأطفال اهمالا ، بل لقد تركه كل الأدباء فى وطننا مغلقا . ان « لافونتين » هو أستاذه فى هذه الخرافات الرمزية ، ولكن رمزيتها من لون كليلة ودمنه ، ولهذا تقبلها القراء . فالأطفال يرونها قصصا ممتعة والعارفون يدركون مغزاها السياسى . فحكاية « الهنــدى والدجاج البلدى » التى نشرت بالأهرام من الناس لم يدرك ان الهندى هو الاحتلال أو هو المستعمر الذى تذرع بنشر رسالة المدنية ليستولى على « بلدى » ثم يضحك من سخف الذريعة وتصديق بعض الناس .

انه يشعر ان الطبيعة قد حبته مواهب لا تقل عن مواهب الكثيرين من شعراء فرنسا وهو يستطيع ان يطرق بهذه الموهبة

بابا آخر أكثر اتساعا وأشد أغراء . لم تخف عليه مكانة المسرح وشعرائه قديما وحديثا أمثال عباقرة اليونان سوفوكليس واريستوفان ويوريبيدس ، وعباقرة فرنسا المعاصرين له : اسكندر ديماس الابن (٢٤ - ١٨٩٥) واميل أوجييه (٢٠ - ١٨٩٩) وكلاهما من كتاب الرواية الموضوعية ، ثم عاهل المسرح الفرنسى فكتوريان ساردو (١٨٣١ - ١٩٠٨) وهنرى بك (٣٧ - ١٨٩٩) زعيم المدرسة الواقعية فى المسرح الفرنسى واميل زولا (١٨٤٠ - ١٩٠٣) زعيم القصاصين الطبيعيين وغيرهم . وهو يذكر أن صديقه عثمان جلال ترجم ونشر أربع روايات من نوع الكوميدى عن موليير الى الرجل المصرى ، ولكن الترجمة فى الفن لا توافق مزاجه الخلاق ، فهو لم يترجم بعد قصيدة البحيرة للامرتين ، الا أبياتا قليلة ، وأكبر همه بعد ان شاهد من مسارح فرنسا الاوديون واللوفر والكوميدى فرانسيز وغيرها ان يكون لمصر مسرحها .

ان كتابة المسرحية ليست عملا هينا ، ولولا ان موهبته تسعفه لما استطاع بعد قراءته الطويلة فى تاريخ المماليك ان يعرض عرضا مسرحيا ، للأخلاق الانسانية فى أوقات المحن عندما اختار « على بك » موضوعا . لقد حاول ان يوفر للمسرحية بواعث الصراع الداخلى حين جعل « مراد بك » يتدله بحب « اقبال » زوجة أميره ، ثم يكتشف فى النهاية انها أخته ، بيعت فى سوق الرقيق مثلما بيع هو من قبل . غير ان توالى الاحداث يكاد يفقده القدرة على الالتفات للشخصيات كما ينبغى ، لكنه على أية حال ، قال ما يمكن ان يقوله . واستعان بعنصر السخرية المسرحية ليضفى على الاحداث الجادة لونا من الطرافة والتشويق ، وذلك بادخال شخصية « عثمان بك » الذى كان عينا للدولة العلية يتآمر مع الباشا ضد محمد بك وعلى بك ومراد بك ، وهم

لا يعلمون · ان ذلك يجعل الجمهور يشارك في صنع مصير الأبطال ، أو يشعر بهذا الشعور ، لأنه يعلم الحقيقة بينما الابطال يجهلونها. ثم استغل موسيقى البحور العربية فتخير البحور الطويلة لتصوير العواطف وسرد الحوادث ، والخفيفة السريعة فى المواقف المرحة .

ماذا أخذت منه فرنسا وماذا أخذ منها ؟ .. لقد أخذت أحلى أيام شبابه ، ولكنه أخذ منها علما وفنا · واذا كانت أيامه هناك قد آذنت بالغروب وآن له أن يرحل فهو لم يعد فى حاجة ملحة الى البقاء ، والحنين الحنين أنشودة رائعة تلهب حنـاياه · ليس عليه الا أن يودع صـديقيه « شـكيب راسلان » و « على أبو الفتوح » ، قبل أن يحزم أمتعتـه ثم يلقى على باريس نظرة الوداع ، ويستقل الباخرة فى رحلة العودة · ان أنين البـاخرة وصراخ المودعين لا يبعث الشجى الى نفسه هذه المرة ، بل يرده ردا الى وطنه ، وعندما صافح وجهه نسيم الاسكندرية ، أحس بسعادة غامرة .

الباب الثانى

القفص الذهبى

فى القصر

رجع شوقى الى مصر ، ليعيش فى القصر معيشة رتيبة « بقلم الترجمة » فلم ترج سوقه لدى الخديو عباس لأنه كان يعتقد أن رجال السياسة ألزم له فى فترة الصراع التى بدأها مع كرومر ، وشوقى شاعر ، فبالله ماذا يستطيع ؟ ألم يكتب محمد عثمان جلال على باب غرفة على الليثى شاعر جده اسماعيل منذ سنوات قليلة : « انما نطعمكم لوجه الله ؟ » ٠

ومما يزيد فى قنوطه أن كثيرين من الأزهريين الذين لا يتصورون عائدا من أوربا يقوى على ابداع ذلك المستوى من الشعر ، يلغطون بأن الشيخ زكى سند هو الذى يعينه على النظم ٠ ولكن لماذا هذا الزعم ؟ ألأنه يسكن بدار أبيه فى حى الحنفى ، والى جواره يقيم الشيخ زكى مؤسس جماعة مكارم الأخلاق ؟ انه يلتقى به كل صباح حيث يذهب الى عمله بسراى عابدين ، ويتجه الشيخ الى مدرسة اليسوعيين ، ولكنهما قلما التقيا بقية اليوم لأن دنيا الشيخ غير دنياه (١) ٠

انقضى عام أو كاد ، ولا جديد ، اللهم الا قرار الحكومة بايفاده الى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى مدينة جنيف ، مندوبا عنها ٠ انها على أية حال فرصة يخرج فيها من الركود ، ثم أسعفته بديهته فى القيام بعمل كبير ٠ ألم تتضح الشخصية المصرية من خلال الأحداث على مدى القرن كله ؟ ان جذورها ممتدة فى أعماق التاريخ الفرعونى

---

(١) أبولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٦٤ ، ٣٨٣ ٠

والعربى معا . ترى هل تقوى كلمة نثرية على التعبير عن كل هذه المشاعر ؟ فلتكن مطولة شعرية تحكى مسيرة التاريخ فى مصر . أليس تاريخ الأمم هو الدعامة التى تستند اليها فى أيام المحن ؟ أليس مجدها الغابر باعثا لها من غفلتها ؟ من هذه الزاوية ينبغى أن ينطلق فىمطولة فيواكب الأيام منذ الفراعنة .

وبدأ يقرأ الكتب العربية والأوربية التى درست هذه الأزمان . ومن الطبيعى ألا يكون الأمر هنا أمر موهبة شعرية وحسب ، فهو دراسة تاريخية قبل كل شىء ، يلم بسير الأحداث وانطباعاتها التى تركتها من قصص شعبى ، حتى لا تكون القصيدة منظومة تاريخية ، فهى تحليل يستند الى روح التاريخ ، أما قبل ذلك أو بعد ذلك فهو لا يستطيع أن يخلصها ولا ينبغى من بصمات شخصيته ، وهكذا يأخذ الفن من التاريخ ويعطيه أيضا :

همت الفلك واحتواها المـاء وحداهـا بمن تقل الرجـاء

هكذا بدأ يترنم وهو منفعل بعالم البحر الذى يراه بلا نهاية ، والأمواج عالية صاخبة ، ترفع السفينة كأنها تسـير فى السماء ، وتتصل اللجج كالهضاب فى رمال الصحراء المنبسطة ، تتبدل وتتغير كل حين وكل صباح .

وعندما وصل خاطره الى الصحراء توقف ، أليس فى صعود السفينة وهبوطها ما يذكر بالناقة وحداء العربى ؟

ضرب البـحر ذو العباب حوا
ليها سماء قـــد أكبرتها سماء

لجة عنـــد لجة عنـــد أخرى

كهضـــاب ماجت بهـــا البيداء

نازلات فى ســـيرها صـــاعدات

كالهوادى يهزهن الحـــداء

وتوالت على خياله الصـــور ، يزحم بعضها بعضا ٠٠ عبقرية الفراعنة وما شيدوه ، وما علموه للدنيـــا ، فاذا كان هنـــاك من المؤرخين من يهـــاجم هـــذه الصفحة المشرقة ، فما أجدره أن يقف موقف المنصف ٠ ولكن تاريخ الفراعنة لا يخلو من صفحة عرفوا فيها مرارة الهزيمة وان كان الى جوارها صفحات ذاقوا فيها حلاوة النصر ، وما أشبه ذلك ، بالاحتلال البريطانى ، انها فرصة ينفذ منها :

ان ملكت النفوس فأبغ رضاها

فلهـــا ثورة وفيهـــا مضاء

يســـكن الوحش للوثوب من الاسر

فكيف الخـــلائق العقـــلاء ؟

الواقع أن موضوع «قمبيز» الفارسى يصلح قصة قائمة بذاتها، فيهـــا روعة الاباء ، وفيهـــا جلال المواقف ، وفيها القـــوة الانسانية والضعف الانسانى ٠ وأى شىء أجل من أن يرى فرعون ابنته تمشى فى السلاسل وقد أزعج الدهر عريها وهى أسيرة ، فلا يبكى وانما هو أبى اباء ابنته ، وانما يبكى رحمة بصديقه وقـــد رآه بعد العز يستجدى ٠

ويتوقف التاريخ ، وينطلق مـــع أحاسيسه ، فاذا موجة أثر

أخرى تطفو حاملة معها قبسا من روحه الدينى العميق فى حناياه ، ذلك طابعه ، لا بد أن يثبت وجوده ، كلما جاء ذكر الله فى خاطره ، فما عبادة الفراعنة وغير الفراعنة الا الرموز التى اتخذتها العقول فى صباها ، وهى تبحث عن الحقيقة الكبرى ، عن الرب ، قبل أن يهديها الانبياء ٠

وتتواكب صور التاريخ مرة أخرى ، انه تاريخ الاسلام واعلامه، من عمرو بن العاص الى صلاح الدين الايوبى ، بل هو تاريخ الفداء ، واذا استوى الموت والحياة ، فليس للذل حيلة فى تلك النفوس ٠ وأحس ان القصيدة طالت ، فثلثمائة بيت تبعث الملل الى السامع فى المؤتمر ، فلتكن اذن لمسات خاطفة يعرض فيها لنابليون وطيشه ، واستهزاء الاهرام بجنوده كأنما تدرك نهايته القريبة فى «واترلو»٠ حتى اذا وصل الى قناة السويس هزته النكبة ، انها ضلة زانها الشقاء المصر ، وليس من ملوم «أيها القوم كلكم أبرياء» ٠ وتنتهى القصيدة بصورة للخديو الشاب والشاعر الشاب الى جواره :

يا عزيز الانام والعصر سمعا
فلقد شاق منطقى الاصغاء

ان عصرا مولاى فيه المرجى
انا فيه القريض والشعراء

ان أحدا لم يلتفت اليه ، وبقى اللغط ، كما هو ٠ ما أشقى الفنان وما أتعس حياته ، انه يغنى للناس منذ سنوات ، فيسمع الناس الغناء ولا يكلف أحد نفسه بأن يرفع بصره الى المغنى ، حتى

اذا ما احترق تمـــاما بدأوا يبصرونه ، ولكنه كالبلبل لا يملك الا التغريد فى أفراحه وأحزانه · ولو التفت اليه الخديو لصفق الناس له ، فليس أمامه اذن الا المديح ، وهكذا يعيد التاريخ نفسه ، تاريخ المتبنى والبحترى وغيرهما ، ومع ذلك فالنقاد يلومون شعراء المديح، ماذا يصنعون اذن ؟ يتضورون جوعا ، ويقبرون فنهـم ؟ ان الناس لا تكاد تلتفت الا الى شعراء الملوك والامراء ، والنقاد أنفسهم قلما التفتوا الى غيرهم ومع كل هذا يلومونهم · « كم خلت الجيوب ، وكم شكوت المز » ومع ذلك فالناس يحسبون شـوقى قد ولد وفى فمه ملعقة من ذهب · لولا نمزار لعرف شوقى البؤس والشـقاء ، ان رحمة الله هى التى قيضت له هذه الحاضنه ، فعاش أشبه باليتيم وأبوه ما يزال على قيد الحياة · لماذا يا أبى اسرفت على نفسك وعلى ولدك ، لـماذا بددت ثروة أبيك فى طيش الشباب ، ولكن الحسرة لا تنفــع ، أحقا أردت لولدك أن يعيش من عرقه وألا يرتزق من الموتى ؟ هاهو ذا ولدك يعيش فى خط الحنفى ، ويذهب كل صباح الى عمله ، فلا يكاد يكفيه راتبه ، ثم ينظم كل مساء للناس وللخديو، ويقبض على الهواء ، فماذا يصنع ان تزوج ؟

أنا لم أغنـم من النا س سـوى فنجان قهـوة
أنا لم أجـز عن المـد ح من الامـلاك فروه
أنا لم أجز عن الكتب مـ ـن القـراء حظوه
ضـيع الكل حيـائى وعفـافى والمـروه (١)

ولكن ما له ولهذه الاشجان ؟ ألم يقرر أنه سـوف يركز على

---

(١) الشوقيات القديمة ص ٢٠٥ ·

المديح ؟ لقد كانت قصيدته الماضية وصفيه ، عرض فيها صورا من «المنتزه» قصر العباس بالاسكندرية وما فيه من ألوان الابهة ، غاباته التى تهزأ بغابات البوسفور وبحيرته التى تنسى «لامرتين» البحيرة الشهيرة ، والطيور والحيوان التى تطوف بالبحيرة وتمرح فى الغاب والجوارى والمبانى .. فلتكن قصيدته هذه فى العام الهجرى الجديد بعيدة عن الوصف ، عامرة بالمديح الخالص ، ولكنه لا يملك الا أن يعرض لحقوق وطنه :

أبا الحيارى ألا رأى فيعصمهم
فليس الا الى أرائك الهـــرب

باتوا يرجون لمــا طــال بؤسهمو
والنفس عند اشــتداد الخطب ترتقب

هيهات يبصر ملك لا منار له
ولا منـــار اذا لم يرفــع الادب(١)

يبدو أن الانظار قد بدأت تلتفت اليه فعلا ، فالشعر السياسى ينبغى أن يواكب المعركة ويقوم بدوره فيهــا ، وقــد يفشل الرجل السياسى فيما ينجح فيه الشاعر خاصة فيما يتصل بمشاعر الجماهير وعواطفهم . ان بطرس غالى وبشاره تقلا ومصطفى كامل ، قد نبهوا الخديو الى ذلك ، بل لقد عرض بطرس غالى على الخديو أن يسمح له بتوظيف الشاعر فى الخارجية بضعف مرتبه الذى يتنــاوله من قلم الترجمة فى السراى ، وعرض بشاره تقلا عليه مثل هذا العرض ليقوم بتحرير الاهرام .

هكذا بدأ الخــديو يدرك قيمته ، ولو لم يصنع لكان له فى جريدة الاهرام متسع ، ولكن الخديو قد أولاه كثيرا من المهام التى

---

(١) الشوقيات القديمة ص ٥٨ .

قام بها خير قيام ، فمنحه ثقته ، وبدأ يقدمه على كل رجاله . فما أعجب الأيام ، لقد كان منذ حين يوسط صديقه أحمد زكى عند رئيسه حمزه فهمى ، وتدور الايام ، وها هو ذا حمزه فهمى يوسط أحمد زكى عنده (١) .

بل ان الاعيان يوسطونه كما يوسطون على يوسف أو مصطفى كامل ، للحصول على الرتب والنياشين ، وهى فى واقع الأمر تجارة (٢) فاذا كانت تجارة شائنة ، ففيها ربح عظيم للجمعيات الخيرية والملاجىء وكل المؤسسات المقامة للرحمة بالانسان . فلولا الاموال المأخوذة من هذه التجارة ، ما تبرع الخديو لمحتاج بقرش واحد ، ولما قرأ القارىء فى صحيفة سيارة « تبرعت الحضرة الفخيمة الخديوية بمبلغ مائة جنيه للجمعية الخيرية الاسلامية أو لغيرها من مؤسسات البر » . فأى ضير فى أن يأخذ شاعر الامير من الخديو بعض أموال الاقطاعيين المتهافتين على الالقاب ؟ انه ينفق أكثرها على نفسه يعوض أيام الحرمان والباقى على المعوزين . وعلى يوسف ألا يأخذ بعضا من تلك الاموال ثم يطلب المزيد ؟ لقد كلفه الخديو أن يطلب معونة لصحيفة المؤيد من أحد أعيان المنوفية ، وهو رجل يتحرق بخلا ، يعطى القليل بعد مشقه وجهد ، بينما يعطى عمر طوسون لصحيفة اللواء فى سخاء . لعل ذلك هو الذى دفع على يوسف الى احتضان الشاعر حافظ ابراهيم نكاية فى شاعر الأمير ظنا منه أن شوقى هو الذى يقترح أسماء المتبرعين (٣) .

لقد أصبح صديق الخديو ونجيه ، ومكانته فى هذا المقام لا تختلف عن مكانة المتنبى لدى سيف الدولة والبحترى لدى المتوكل

---

(١) أبولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٦٤ ومابعدها .

(٢) أعمالى بعد مذكراتى لأحمد شفيق ص ٤١١ .

(٣) حياة شوقى لأحمد محفوظ ص ١٤٩ .

وأبى نواس لدى الامين ، بل ربما تزيد · ألم يعلم بأن شاعره لايدع الكأس فارغة ولا يطيق أن يراها مليئة ، فتغاضى عن ذلك ، ولم يزد على أن قال «أبو قارورة» ؟ ألم يتبسط معه ويعاتبه لانه جلس فى المقعد الامامى بعربته وكان ينبغى أن يجلس فى المقعد الخلفى الى جوار ولده حسين لانه شاعر الامير ؟ بل ألم يزره فى بيته ، وكان فى ذلك الوقت يحاول نظم احدى قصائده فى مدح الرسول ؟ انه يذكر هذا اليوم جيدا ، ويذكر انه أحس بقوة عليا تؤيده بعد مدحه للرسول ، فقال على الفور :

يا ليلة القـدر التى بلغتهـا
ما فيك بعد اليوم من مرتاب

ما كنت أهـلا للنوال وانمـا
نفحات أحمد فوق كل حساب

لما بلغت السـؤل ليـلة مدحـه
بعث الملوك يعظمون جنابى

بل ان منزلته شفعت له عنده ، عندما تخلى عن الحج معه ، واختبأ فى منزل أحد أصدقائه « ببنها » ، فبحث عنه الخديو دون جدوى ، ثم اعتذر له حين عودته بأنه لا يقوى على ركوب الابل · ومن الحق انه قد ندم واستغفر الله كثيرا ، ولكن صحته لا تتحمل مشقة الرحله، انه يضحك ويأسف كثيرا عندما يذكر هذا الموقف(١)، ثم كتب قصيدته «الى عرفات» وهو منفعل بكل هذه الاحاسيس ·

ولكن هل سكت الناس عنه ؟ لا ، فهم يقولون ان البلبل قد احتواه القفص الذهبى ، ويذكرون مدائحه ، ثم شعره فى الحفلات الراقصة التى يقيمها الخديو فى قصره · هم يطربون حقا ، ولكنهم

---

(١) أبى شوقى ص ١١ ·

يأسفون ويمطون شفاههم ثم يرددون « شاعر النيل غوى » ، لقد أطربتهم دون شك أبياته التى قالها فى حفل عابدين على الوزن الذى اخترعه البارودى :

مال واحتجب وادعى الغضب

واطربته كما أطربتهم منظومه حافظ والبشرى الفكاهية من نفس الوزن التى داعبا بها قصيدته ، فكان أحدهما ينظم شطرا والآخر يكمله وهما يسيران ذات يوم على النيل ، حتى أتما نظم ستين بيتاً من هذا اللون الشعبى المحبب :

شال وانخبط وادعى العبط
ليت هاجرى يبلع الزلط
عتبه شجى حبه غلط
كلما مشى خطوة سقط
ان أمره فى الهوى شطط (١)

والنقاد يطربون أيضا ، ولكنهم يشيرون بأصابع الريبة لشعره فى السلطان ، كأنه وحده الذى مدحه ، أو كأن الدماء التركية التى تجرى فى عروقه مختلطة بالدماء العربية ، هى الدافع الاول له ، وينسون أن «عبد الحميد» هو خليفة المسلمين ، والداعى للوحدة الاسلامية ، والواقف كالصخرة أمام مطامع الدول الاجنبية . ومن الغريب أن كل الاحداث والقضايا الاجتماعية تهزه وينفعل بها ويقول فيها ، فأقل شعره فى المديح وأكثره فى مواقف الحياة . ألم يكتب فى حريق ميت غمر ، بل سافر الى ميت غمر ليرى بنفسه آثار الدمار ؟ ألم يكتب فى انتحار الطلبة وفى الوئام بين عنصرى الامه

---

(١) شوقى وحافظ لطاهر الطناحى ص ٩٢ .

المسلمين والمسيحيين ؟ ألم يكتب فى المدائح النبوية مهاجما مزاعم المبشرين ومن يسيرون فى فلكهم وموضحا مواقف الاسلام المشرقة فى جوانب الحياة كافة ؟ ألم يغن لنفسة ولهم فيصور الطبيعة المصرية السمحة ، ويردد أناشيد الغزل ؟ ألم يكتب فى التاريخ والآثار فيحكى مجد الماضى ويجلو روعته ؟ بل ألم يكتب فى كل موقف سياسى ؟ انهم يشيرون دائما الى حادثة دنشواى وكيف صمت عاما كاملا حتى قال فى ذكرى الحادثة • ولكنهم ينسون أنه كان فى الخارج مع الخديو(١) ، فلم تصله أنباء الحادثة الا مشوهة موجزة، لا تثير انفعال شاعر ، فلما عاد كان الكاتب القصصى طاهر حقى قد بدأ ينشر رواية « عذراء دنشواى » فى حلقات متتابعة بجريدة المنبر ، ابتداء من ٦ يوليو ١٩٠٦ ، وأهدى المؤلف روايته الى أمير الشعراء ، فماذا صنع أمير الشعراء ؟ لقد كتب الى الاديب خطابا مفتوحا يعبر فيه عن موقفه •

« اطلعت فى المنبر المتصل ان شاء الله تعالى بالجوزاء ، على فاتحة رواية باسم (عذراء دنشواى) ، رأى حضرة واضعها الفاضل تلطفا منه واحسانا أن يهديها الى ، ورأيت أن أعتذر على أعواد المنبر من قبول الهدية ، وأن أنفض يدى من عذراء نشأت بين حمام كم جلب من حمام • وبين اجران كم جرت من أحزان • ولو سألنى حضرة المؤلف رأيى قبل أن ينشر ما نشر كما هو مألوف فى مثل هذا المقام لدللته على من هو أحق منى بحسن ظنه كعشماوى ، أو نابغة المحامين الهلباوى أو غيرهما من جنود الحادثة وشهود الكارثة ، والسلام»(٢)

ثم ألم يقل بعد شهور أبياته العنيفة ، حين رقى أحمد فتحى زغلول الى وكالة وزارة الحقانية بتوجيه اللورد كرومر ، وهو أحد

---

(١) وطنية شوقي للحوفى ص ١٤٣ •

(٢) الشوقيات المجهولة جـ ٢ لمحمد صبرى ص ٤٣ •

القضاة فى المحكمة المخصوصة التى شكلت لمحاكمة أهل دنشواى . فلم يعبأ بالصلة التى بينه وبين سعد زغلول ، وأرسل هذه الابيات الى الحفل الذى أقيم لتكريم وكيل الحقانية ، بعد أن ألح منظمو الحفل عليه أن يشاركهم بقصيدة :

اذا ما جمعتم أمركم وهممتم
بتقديم شىء للوكيل ثمين

خذوا حبل مشنوق بغير جريرة
وسروال مجلود وقيد سجين

ولا تقرأوا شعرى عليه فحسبه
فى الشعر حكم خطه بيمين

ولا تنشروه فى (شبرد) بل انشروا
على ملأ فى دنشواى حزين(١)

(١) وطنية شوقى للحوفى ص ١٤٥

كرمة ابن هانىء

عندما يفكر الشاعر فى الزواج يحلم بالربيع الدائم ، انه فى عينه الخضرة الممتدة مهما تساقطت الاوراق فى الخريف ، والدفء ان عز فى قسوة الشتاء ، والنسيم اذا توقد لفح الهجير . ما أعجب أن يفكر الرجل فى المرأة على أنها شيطان ، ويفهم أن الزواج شر لا بد منه ، وبهذه المفاهيم يبـدأ حياته الزوجية . وما أعجب أن يصور آخرون يدعون أنهم فهموا الحياة ــ الرباط المقدس على أنه صفقة تجارية لا أكثر ولا أقل . ولكنه فنان والفنان لا يبيع حريته مقابل شىء حتى ولو كان السكن والطمأنينة والاستقرار . ان الامر هنا يرجع الى تربية المرأة وفهمها لوظيفتها المثلى فى الحياة ، فليبحث عن النشأة والاسرة قبل أن يفتش عن المرأة .

وماله ولكل هذا وأمامه جاره حسين شاهين التركى الاصل ، الذى يتلهف الشباب على الزواج من بناته وهو يتأبى ، لانه يدرك انهم يخطبون الثروة ، أتراه يردوه لو تقدم ؟ انه ليس عاطلا بالوراثة حتى يصمه بما وصمهم به ، وليس نكرة حتى يتعالى عليه ، وليس محتاجا حتى يطمع هو فى مال غيره .

ان أحمد عمر المهندس يسعى للزواج من احدى بنات الرجل، ولن يكون هو أقل جرأة منه . وعندما يتم ذلك ، فســـوف ينتقل بزوجه الى «حلوان» ، فهى ضاحية هادئة وما أحب الهدوء الى نفسه، خاصة وأن النيل يحدها ، وهل هناك شاعر مصرى لم يتغن بالنيل؟

وهكذا أقبل عام ١٨٩٥ ، وقد تزوج شوقي وانتقل الى حلوان. وهو سعيد بحياته الجديدة ، فالقطة التركية(١) لم تتعود حتى أن تموء ، وانما تعودت أن تهيىء كل أسباب الهناءة لزوجها رغم مايصدر منه أحيانا من تصرفات فيها كثير من الشذوذ ، فمعه أصدقاؤه دائما على الغداء ، بينما تأكل هي وحدها ، ومعه أصدقاؤه دائما على العشاء ولكن خارج البيت . وهو يجلس معها ولكنه دائمـــا ســابح في خيالاته ، ثم لا يلبث أن يندفع خارجا دون أن ينبس بكلمة ، هكذا اعتاد وهكذا اعتادت ، وما ينبغي لها أن تحمل هذه التصرفات فوق ما تحتمل ، فهو شاعر . ولكن السعادة لم تكتمل ، وهل تمنح الدنيا أحدا بغير حساب ؟ لقد مرض والده ، وحير مرضه الاطباء ، كما حير ولده الرقيق المرهف الاعصاب ، انه لا يدخر وسعا في سبيل رد العافية الى أبيه ، حتى لو جمع أطباء مصر كلهم ، وقد طلبوا اليه أن ينقله الى ضاحية جافة كالزيتون ، فأثث له بيتا ونقله اليه . أتراه يحتمل الصدمة لو لحق نمزار » ؟ أن زوجه المسكينة على وشــك الوضع ، وهو مشتت الفكر حائر اللب بينهما . أيضحك أم يبكي؟ أيهش لاستقبال المولود ، أم يجهش لوداع الراحل ؟ في نفس اللحظة التي وارى فيها والده التراب ، وضعت زوجه ابنته أمينة ، فجمدت عينه عن البكاء وتوقف ثغره عن البسمة ، وعجب لتصاريف القدر التي تخرج الحي من الميت .

المــوت عجــلان الى والدي
والوضع مستعص على زوجتي

والقلب ما بينهما حائر
من بــلدة أسرى الى بــلدة

---

(١) كان يحلو له أن يطلق هذا اللقب على زوجه لوداعتها ورقتها .

حتى بدا الصبح فولى أبى
وأقبلت بعد العناء ابنتى(١)

وانقطعت بعد ذلك صلة الشاعر بحى الحنفى، فقد نقل والدته الى بيته بحلوان لتعيش معه • ومرت الايام مسرعة ، وغسل الشاعر أحزانه ، وأسدلت ستور من النسيان بينه وبين جراحات الماضى ، وبدا له ان حياته قد عادت سيرتها ، وأن الايام التى ازعجته قد كفت يدها عنه •

وكان البارودى قد عاد من منفاه ، وجاور شوقى فى سكناه بحلوان ، « فاذا الجار كريم والشاعر عظيم (٢) » ولكن عودته لم تثر ضجة أدبية ، فقد احتل شاعر الامير زعامة الشعر ، ومن الحق انه كان قد تأثر به ونسج على منواله أول عهده بالشعر ولكنه اليوم يختط طريقا جديدة ، فالبارودى فارس فى حياته وفى شعره ، جهير الصوت جزل الكلمات ، أما هو فرقة طبعه ، غلبت على نتاجه ، حتى استحالت قصائده أنغاما ، تصلح للغناء فى أفراح مصر وفى أحزانها• والبارودى يمثل فترة الاحياء للتراث والرجعة الى زمان الفحول بما فيه من نقاء وقوة ، اما هو فقد تجاوز هذه المرحلة ، أو بمعنى آخر هو التطور الطبيعى للبيئة والزمان • ان شخصية مصر لم تكن قد اكتملت ونضجت أيام البارودى ، وانما كانت كل الاحداث ارهاصا• وهل كان البارودى يستطيع أن يقول فى ابنته «سميرة» الا ما قال؟ أما هو فابنته « أمينة » تمثل الجيل الجديد ، والشخصية الجديدة النامية ، ومن أجل ذلك كان شعره فيها مصبوغا بهذه الصبغة ، مصورا لآمال الكبار فى الناشئة الجديدة ، عندما تكبر ، وتبنى مصر بسواعدها القوية ، ان الجيل الصاعد لا يعرف العبرات ولا اليأس،

---

(١) الشوقيات القديمة ص ٢٠٠

(٢) الشوقيات المجهولة ص ١١٨ •

وانما يعرف المدافعة والمزاحمة وأخذ العيش بقوة ونيل الدنيا غلابا ٠
انه يحب أبناءه ، عليا ، وأمينة ، وحسينا ، واذا كان على هو ولى عهده كما يحلو له دائما أن يسميه ، فان حسينا لا يطيق فراقه ، ولكن أمينة وحدها هى التى استأثرت بأكثر شعره فى الاسرة لانها تمثل الحنان ، تمثل أمومة مصر ٠

ولى طفلة جازت السنتين
كبعض الملائك أو أطهر

بعينين فى مثل لون السماء
وسنين ياحبذا الجوهر

فقلت لها أيهذا الملاك
تحب السلام ولا أنكر

ولكن قبلك خاب المسيح
وباء بمنشورة القيصر

ومن يعدم الظفر بين الذئاب
فان الذئاب به تظفر

فخذ هاك « بندقة » نارها
سلام عليك اذا تسعر

ففيها الحياة لمن حازها
وفيها السعادة والمفخر ٠٠(١)

كم طابت له الاقامة فى هذه الاشهر الاخيرة التى جاور فيها البارودى ، وشهد بعض ندواته التى كان يحضرها الادباء ، ولكنه

---

(١) الشوقيات القديمة ص ٤٠ ٠

مضطر للانتقال الى داره الجديدة بالمطرية ، ليكون على مقربة من عمله بقصر القبة · « ان كرمه ابن هانيء » هى بيت الاحلام بناها على نسق قصر المنتزه ، فحديقتها مليئة بالحيوانات الاليفة وغير الاليفة ، الغزلان والسلاحف والقرده والطواويس والببغاوات ومئات العصافير الملونة ، والتمساح الذى أتى به من السودان بنى له حوضا خاصا وسط الحديقة ·

ألم يشاهد كل هذا من قبل فى قصر الخديو ، ويحلم باليوم الذى يكون له فيه مثله ؟ وغرف الصالون الخضراء والحمراء والبيضاء ، واحدة على طراز عربى وأخرى طراز لويس الخامس عشر والثالثة طراز لويس السادس عشر واللوحات التى تزينها ، أغلبها لوحات نادرة ، اشتراها من المزادات التى أغرم بها فى الايام الاخيرة · ولكن غرفة المكتبة هى التى نالت أكبر اهتمامه ، حتى تتسع لانف مجلد عربى وخمسمائة مجلد فرنسى وتركى · فهو يقرأ فى كل اتجاه «وخير جليس فى الزمان كتاب» ، يقرأ فى الطب والفقه والعلوم والجغرافيا والتاريخ والادب ، بل كل كتاب يقع فى يده أو يقرأ عنه فى الدوريات ولكن أحب الكتب الى نفسه ما زالت هى كتب الادب والتاريخ وعلى الاخص الاغانى والامالى والدواوين وابن الاثير والجبرتى ·

ان هذا البيت الضخم يحتاج بطبيعة الحال الى خدم كثيرين والى من تديره ولكنه ينبغى أن يعاملهم معاملة الانسان للانسان ، معاملة السيد للسيد ، حتى لا يشعروا بمرارة الحاجة أو ذل الخدمة ، ثم يمنحهم الوقت الذى يستمتعون فيه بحياتهم بعيدا عن العمل ، ويمنحهم المال ليستمتعوا بوقتهم كما ينبغى ·

وأبغض شيء لديه أن يضطر لاخراج واحد منهم حين يستحيل اصلاح ما أعوج من أمره · وهو لم يعتد فرض شخصيته عن طريق

الاوامر يلقيها بصوت خشن وقد رسم على وجهه قناعا من التجهم ، وانما اعتاد دائما أن يكون سمحا وأن يرعى الجميع ، وألا يجرح واحدا منهم سواء أكان خادمه أم ولده الا اذا كان الامر يمس الدين من قريب أو بعيد ، فهو حريص على أن تكون للدين قدسيته • فقد عنف حسينا مره على مزحة مزحها وقد مست الدين ، عنفه رغم صغر سنه ، ورغم حنانه وحبه الشديد له • وقد دفعه هذا الحنان الشديد الى تدليل أبنـــائه وممازحتهم فى كا، حين فعلى « لولو » وحسين «سيسى» ، حتى بعد أن كبروا وب يملون تقبيلهم من والدهم • وهو يردد دائما : اثنان لاغنى لى ـما ، «حسين ومبسم سيجارتى» • وهذا الحنان نفسه هو الذى جـ ه يفكر فى البيت المجاور لكرمته ، يشتريه ويزيل الجدار بينهما لتقيم فيه ابنته أمينة يوم تتزوج • ولكن هذا التعلق الشديد بأبنـــائه كثيرا ما دفعه الى مزالق ، ألم يحاول أن يستبقى ولده «حسين» ليستمتع بمداعبته ، فيعطل ذهابه الى المدرســة ؟ ولولا حزم المربية التركية واصرارها لجنى المر بعد حين • ألم يسمح لولده على بالتـــدخين فى حضرته حتى اســتنكر الناس خروجه على التقاليد ؟ انه يعيش الحياة طولا وعرضا فليدع الآخرين يعيشون ، فهو لا ينسى أيام كان يضـطـر أحيانا الى رهن ساعته فى سبيل كأس من الشراب • لقد استطاع أن يبدل حياته ، واذا كان فنه قد دفع الجميع الى تقديره ورفعه ، فقد دفع الثمن من أعصابه وصحته حتى وصل الى ما وصل اليه ، واعتاد حياة فيها شيء من الرتابة ولكن فيهـا كثيرا من الخصوبة • فهو لا يستيقظ مبكرا أبدا منذ أيام التلمذة ، وانما بعد العـاشرة بقليل ، حيث يستقبله خادم يغســل وجهـه ورأسه وذراعيه وقدميه بالمــاء الفاتر ثـم «بالكولونيا» ، حتى اذا ما تناول طعـام افطاره وغالبا ما يتكون من القهوة والبيض ، ساعده الخادم فى تناول ملابسه ، ثم يأخذ عربته فى طريقه الى القصر • ما أعجب حياة القصر ، وما أكثر الدسائس

التى تحاك لهذا أو لذاك ، ان آخر الضحايا هو السيد محمد توفيق البكرى الذى أصيب بالجنون · وهكذا تاريخ القصور من قديم وهو تاريخ بشار وأبى نواس والمتنبى وغيرهم ، ولكنه استطاع أن يحتفظ وسط هذه التيارات بالحياد التام ، خاصة بعد أن اضطرب تفكير عباس وراح يتخبط فى تصرفاته ، فهو تارة يفر من الانجليز الى تركيا ، وهو تارة أخرى ينصرف عن السلطان محتميا منه بالانجليز، وهو كاره لكليهما فى الحالين ، لا تطمئن نفسه الى هذا ولا الى ذاك· وبينما يشجع أعضاء تركيا الفتاة الفارين الى مصر ، اذا به ينقلب الى محاربتهم وبينما هو مقبل على الشعب يحتضن مطالبه التماسا للحد من نفوذ كرومر ، اذا به يتنكر للشعب ويزج بالاحرار فى السجون حين يرى اقبال جورست عليه ، مهما يكن من دخيلة أمره فقد انتهى الى اليأس والانحلال(١) ·

هذه هى حياة القصور ، ويا لها من حياة داخل هذا القفص الذهبى ، ولكنه استطاع أن يتسلل منه ، فلا يحس ضيق القضبان وألم القيد · على انه ينسى كل هذا اذا ما عاد الى بيته ، فهو يخلع رداء السياسة ليلبس رداء الفن · فكم شهدت الكرمة من احتفالات وامسيات بهيجة ، خاصة أيام شم النسيم حين يجتمع الادباء والشعراء ، وعلى رأسهم حافظ ابراهيم وخليل مطران ينشدان وسط طرب الحاضرين · واذا ما تصادف وجود أديب كبير من أدباء الغرب أو الشرق دعى الى الكرمة ، مثلما دعى «هول كين» الكاتب الانجليزى عام ١٩٠٨ ، وأنشدت قصيدته هو هذه المرة :

أيها الكاتب المصور صور
مصر بالمنظر الانيق الخليق

(١) الاتجاهات الوطنية فى الادب المعاصر ص ١٧٠/١٧١ ·

ان مصرا رواية الدهر فاقــرأ
عبرة الدهر فى الكتاب العتيق

وهو يحب الافتتـــان فى كل شيء ، فى كل لمسة من لمسات البيت ، وفى كل طبق من أطباق الطعام · فكم دعا صديقه الطبيب النمساوى لاجادته طبقا فرنسيا وهو «حساء السمك» ، وكم أرهق صديقه الزعيم التونسى السيد الثعـــالبى بتكليفه صنع أطباق من الطعام التونسى · ولكنه غير أكول ، وحتى الاطبـاق التى يهواها ، قــد يعزف عنها بقية عمره ان رأى من يأكل منهـــا بطريقة تثير اشمئزازه ·

ولكن أحب الاوقات الى نفسه ، هى ما بعد الغداء حين يفرغ للقراءة ، انها تبعده عن كل صراع الا صراع الفكر · أما وقته فى المســـاء فموزع ما بين زياراته لشـقيقته أو زياراته لاصدقائه من أصحاب الصحف ، ثم العودة الى «جروبى أو صولت» وهو فى أكثر تنقلاته يحاول أن يختلط بالناس فيركب الترام ويستمع الى أحاديث العامة ، ويفهم ما يصدرون عنه · حتى اذا ما جاوز الليل منتصفه ، آن له أن يعود الى بيته ، فيتخفف من ملابسه ، ثم يلبس جلبابا من الصوف الرقيق ، ويبقى بغرفته يسجل مانظمه طول يومه ، أو يكمل قصـــيدة بدأها ، فاذا أتم ذلك ، استغرق فى القراءة الى منتصف الرابعة ، وحده فى هدأة الليـل · حتى اذا أذن الديك الصدوح ، ترك القلم والكتاب ، وأسلم جفنيه للنعاس ·

حيرة

كانت حركة الاحياء آخذة فى المسير ، وأخذ الشعراء ينسجون على نمط فحول الشعر العربى ، ولكن الشعر بقى بحاجة الى خطوة أخرى ، بل خطوات . ومنذ أواخر القرن الماضى بدأت الدعوة الى تمثل الشعر العربي تتخذ طريقها . ونشر المقتطف عام ١٨٩٢ توجيهه يقوم على هذا التمثل ، حين كان المثقفون يقرأون الشعر الغربى ، فيجدون فيه انطلاقا من كثير من القيود ، ويجدون فيه تعبيرا عن تجربة ويجدون فيه اتجاهات أرحب ، ثم يقرأون الشعر العربى فيرون الشاعر مازال يبكى الاطلال ، ومازال يرتدى أثوابا بعضها صالح للبقاء وبعضها قد ابلته الأيام . قال المقتطف : « أما المحدثون فقد اتبع أكثرهم خطة واحدة فى الغزل والمدح والرثاء ، فيبتدىء الشاعر بوصف غادة ، فيشبه شعرها بالليل وجبينها بالصبح وحاجبها بالسيف وعينها بالنرجس ووجنتها بالورد وثغرها باللؤلؤ ، وريقها بالعسل وقوامها بالبان ، وينتقل الى الممدوح فيدعى أنه أسد فى الشجاعة وحاتم فى الكرم وبحر فى الجود ، وانه جمع علوم الورى فى صدره ، ثم يدعو له بطول البقاء . هذا وقد استشارنا بعض النابغين من شعراء عصرنا فى طريقة لفك الشعر العربى من ربقة القيود التى يتقيد بها ، فأشرنا عليهم بترجمة أشعار هوميروس وملتون وغيرهما من فحول الشعراء فعملوا بمشورتنا ، فاذا أتيح لهم أن ينظموا هذه الاشعار ولا يضيعوا شيئا من بلاغتها ، رأى فيها أدباؤنا ما يغير رأيهم فى

الشعر والشعراء ، فيغادرون الطريقة التي اتبعوها حتى الآن » (١) .

هذه الدعوة كانت بمثابة البذرة ، ألقيت في التربة المصرية الخصبة ، فلم تمض سنوات حتى ترجم سليمان البستاني الياذة هوميروس عام ١٩٠٤ ، وتناول في مقدمته التي تقع في مائتي صفحة الترجمة الشعرية وعلاقة الاوزان والقوافي بالمعاني . ولم تكد تظهر الالياذة ، حتى شغلت الجرائد والمجلات وقال الهلال :

« ان الالياذة العربية بما فيها من الأبحاث الشعرية المبتكرة جديرة أن تكون بدء نهضة جديدة في الشعر العربي ، فتتجه عناية شعرائنا الى نظم الشعر القصصي أو الوصفي بعد أن تبين من نظم الالياذة ان اللغة العربية متسعة لذلك والنهضة العمومية تستلزم هذا الاصلاح ، وان تصرف القرائح في الشعر الموسيقي عن الأساليب القديمة كالاستهلال بالتشبيب أو ذكر الخمر أو الزهر والتخلص الى المدح أو غيره فيسير الناس على ما يقتضيه نور العلم في تحدي العقول والاقتراب من الحقيقة بقدر الامكان » (٢) .

وتستمر الدعوة الى التجديد ، فيدعو النقاد الى التجديد في المحتوى ، بعد أن أصبح شعرنا مكررا ، فليس الشعر غزلا ورثاء ومدحا وحسب . حتى لو جمعنا ما قاله الشعراء في هذه الموضوعات التي احترقت لم نر أدنى فرق بين الواحد منهم والآخر ولأمكننا — كما قال النقاد — ان نختصر تلك المجلدات الضخمة الى صفحات « فالشعر عندنا عود ليس فيه الا وتر واحد يضرب عليه الكل فيختلف الصوت تبعا لقوة الضربة وحركة

---

(١) المقتطف ص ١٥٠ (١٨٩٢) .

(٢) الهلال يوليو ١٩٠٤ ص ٥٧٥ .

الأنامل ، والغريب ان أكثر شعرائنا وكتابنا لا يريدون تغيير القديم، بل ولا يقبلون الجديد ، فان سمع الواحد منهم بيتا جديدا أو معنى جديدا ، قال هذه تصورات افرنجية ، كأن الفكر العربى قاصر على الاختراع وليست له قدرة الابداع (١) . »

ما زلنا فى العام الأول من القرن العشرين والدعوة الى التجديد تأخذ طريقها ، فيطالب النقاد بالصدق الفنى ، صدق الاحساس ، فلا حاجة بالشاعر الى أن يصف أماكن لم يرها ، ولكنه محتاج الى أن يعبر عما تجيش به نفسه حقيقة . ولا معنى لحداء الابل وهبوب ريح الحجاز وذكر الرقمتين ، ولا معنى لأن تبدو له المركبات الحديثة فى صورة هوادج البدو ويرى فى الأهرام أطلالا ، كأنما وضعنا للشعر قالبا من الحديد ضمناه قرائحنا كما يفعل أهل الصين بأقدام بناتهم ، فلا القالب يتسع ولا الرجل تنمو . « فاتهم أن الشعر يتغير بتغير البلدان واختلاف طبائع الأمم ، ويرافقها فى أحوالها المتباينة ، فهو طورا في مقام واصف ابهة الملك وعزة البلاد ، وتارة فى مقام المفاخر بما خلفه الاباء والأجداد ، وآونة يمثل عظمة الطبيعة وجمالها ، وحينا يعكس فى عين المرء أو الشعب صوره أخلاقه وآرائه » .(٢)

ثم انتقل الأمر الى زاوية أخرى شديدة الأهمية عظيمة الخطر ، وهى الصنعة والترصيع والاكثار من التشبيهات والاستعارات والكنايات ، حتى تصبح القصيدة كالثوب المبرقش ، تختفى خلف زخارفه قيمته ، وتتشتت فى نقشها الأحاسيس وكأنما يستعذب أدباء العرب هذا الكلام المرصع مثلما يستحسنون النقش

---

(١) المقتطف ١٩٠٠ ص ٢٩٣ (بلاغة العرب والافرنج للدكتور نقولا فياض).

(٢) المصدر السابق .

على اليد والصبغ الأحمر على البنيان والاثمد على الشفاه . والفرق بين اليد البيضاء الطبيعية وبين اليد المنقوش عليها ذلك النقش الوحشى والأنامل المخضبة بالحناء ، واضح لأصحاب الاذواق السليمة . وفى ذلك قال روحى الخالدى : « ففكتور هوجو وأهل طريقه لا يرون شيئا من الحسن فى هذه التشابيه والاستعارات المدرسية ولا يستعذبون معنى من تلك المعانى التى ليست بطبيعية ، بل يجدونها من المعانى السخيفة خرج بها أصحابها عن الذوق ... ثم جاءوا يقولون : نالت على يدها ما لم تنله يدى » . (١)

انه عصر الاحتكاك بين الحضارتين ، والدعوات الى التجديد تظهر على أشدها دائما فى مثل تلك الأوقات ، هكذا أدرك شوقى ، وكان له موقف . فيهاجم الاستغراق فى القديم كما يهاجم الاستغراق فى الجديد . يهاجم شعراء الصناعة ، ويهاجم الشعراء الذين اتخذوا المديح حرفة وقصروا الشعر على هذا الميدان وحده ، ويهاجم كذلك الشعراء الذين يعيشون فى غير زمانهم ، وأولئك الذين ابتعدوا بالشعر عن وادى الحقيقة ، ولكنه بعد ذلك لا يستغرق في الاتجاهات الغربية ، فالعداء للشعر العربى سببه الجهل به ، لأن به روائع ومعجزات أمثال المتنبى ، وانما السبيل أمام هذين التيارين هو أن نأخذ من صالح الموروث وصالح العصرى ونمخضهما معا ليخرج مركب أساسه الماضى وبناؤه الحاضر .

تلك هى الأسس التى كانت أمامه وهو يكتب مقدمة الديوان وهو يعلم أن القراء سوف يهاجمونه لأنه اتجه الى المديح كما اتجه الشعراء العرب بينما هو لا يجله ، ومن أجل ذلك يدافع عن نفسه ، لأنه قال الشعر ولم يكن أمامه الا النماذج الموروثة

---

(١) الهلال ١٩٠٤ ص ٥٦٨ .

يحتذيها ، ثم طلب العلم فى أوربا ، وهناك اصطدم بالاتجاهات الغربية فحاول التجديد وبعث بقصيدته «خدعوها بقولهم حسناء» فكانت النتيجة أنها لم تنشر لأن الاذواق لم تتطور بعد ، ولم تتقبل هذا الجديد ، أو بمعنى آخر لم تتقبل الجديد طفرة ، وها هو ذا « مطران » صديقه يحاول بعض الاتجاهات الرومانسية فيما ينشر من قصائد فلا يكاد يحفل النـــاس بمحاولاته ، بل لعلهم أدنى الى الارتياب منهم الى التقبل · ولكنه ســـوف يحاول التجديد فى تؤده لا تؤذى الاذواق ، وســـوف يبدأ بتوسيع دائرة انتاجه ، ولكن أمـــامه قاعدة ينبغى الا ينطلق الا منها ، وهى التراث العـــربى ، كلما كان أمر الجديد يتعلق بالشعر · أما النثر فتلك قضية أخرى ، لأنه من العسير أن نرى فى الأدب العربى قصصا بالمعنى الغربى فليحاول اذن أن ينفذ الى هذا المجال الجديد عله أن يوفق ·

ان هواه وغرامه بالتاريخ المصرى القديم ، يدفعه الى التقاط هيكل قصصه من ذلك التاريخ ، وليس هذا الغرام وليد أعجاب وحسب ، ولكنه وليد أحساس أصيل بالشخصية المصرية ، مصر للمصريين ، أنها دعوة جديرة بطول الالتفات من جانب الكتـــاب والشعراء والمؤرخين والباحثين .

وهكذا استغرقته الأعوام وهو يقرأ التـــاريخ الفرعونى ، ويكتب قصصه « عذراء الهند » التى استمد حوادثها من أيام رمسيس الثانى ثم دل وتيمان أو آخر الفراعنة « ولا دياس » . لقد احتفل بهذه القصة الأخيرة أكثر مما احتفل بغيرها فاختار المغامرة البطولية بما فيها من عناصر التشويق ، ركيزة للقصة تلتف حولها الاحداث الفرعية كلها ، انها قصة « أحمس » المصرى « ولا دياس » الإميرة اليـــونانية بنت الملك بوليقراط صـــاحب « ساموس » احدى ممالك اليونان · واطار القصـــة تاريخى ولكن

أحداث الحب فيها روائية أشبه بقصص ألف ليلة وليلة . لم يكن للاميرة كفء من أبناء جنسها للزواج بها ، حتى ابن عمها الامير « بيروس » الذى شغفته حبا ، فاستحال غرامه الى سخط ورغبة فى الانتقام . واشترط أبوها أن يكون صهره ملكا مثله ، سواء نال الملك بكده أم توارثه عن أجداده . فتوافد الأمراء من مصر وفارس والهند لخطبة الأميرة التى سترث عرش ساموس ولو اقتصرت القصة على هذا الحد ما نجحت ، ولكن الأحداث التى جرت بعد ذلك هي التى نمت رسم الشخصيات وتطور العقدة . فقد أسرتها عصبة بايعاز من ابن عمها « بيروس » وهنا يظهر أحمس بطلا فى البحر كما كان فى مصر بطلا فى البر ، وهو فتى له همم لا منتهى لكبارها ، تعينها حظوظ مقبلة . فينقذ الأميرة من أسرها ، بعد أهوال جسام . ثم تقع مرة أخرى فى يد « بهرام » الفارسى الذى كان أحد خطابها ، فيوهمها أنه منقذها ، وبينه وبين أحمس شبه وملامح ، فلا تصدق عيناها ولا يطمئن قلبها .

ويصر الأمير الفارسى أمام أبيها الملك وأمام بطانته أنه منقذها ومخلصها من الأسر ، وأنها أصبحت له زوجا بحق الشرط الذى اشترطه أبوها ، فتأبى الاميرة ، ولا تزال الحوادث تتوالى حتى يظهر « أحمس » من جديد ، فيكشف عن خدعة الامير الفارسى ويثبت للملك أنه هو الذى أنقذها ، وأنه احق الناس بها . ويعود « احمس » الى وطنه بعد أن سبقته اليها أنباء شجاعته الخارقة وبطولته النادرة ، ويعد العدة لانتزاع الملك من الملك « ابرياس » الذى كان « ساقط الشأن فى الداخل ، ميت الذكر فى الخارج » . وانتصر عليه بالحيلة ، ثم بعث فى طلب الأميرة اليونانية لتكون ملكة في عرشه الجديد .

ومن الطبيعى أن تكون الرواية نثرية ، ولكنه لم يستطع أن

يتغلب على روح الشعر فيه ، فظهرت أبيات هنا وهناك ، حين يتأزم موقف ، أو يحتاج الى الخيال كالمواقف العاطفية ، ولم يستطع ، بل لم يحاول أن يتخلص من روح العصر فى الكتابة ، فالسجع هو أسلوب الرواية من أولها الى آخرها ، فاذا كان بعض الكتاب المعاصرين يرون « السجع للمؤلف كالرجل من الخشب للماشى ، فينبغى لى ألا أتوكا عليه مثلا تضيق بى مذاهبه » فان مذاهبه لم تضق ، واذا جاز هذا القول فى المقالات الصحفية التى تتبع الحاجات اليومية أو فى المقالات العلمية ، فهل يجوز فى المجالات الأدبية ؟ موضع نظر (١) .

وهو لا يستطيع ان يخلص من حياته فى مثل هذا المجال ، فهو أدرى بحياة القصور ودسائس الاتباع ، ومن أجل ذلك صورها بجدها ولهوها فيما كتب من قصص . وأظهر فى نفس الوقت النزعات الوطنية مرددا فى ذلك اصداء الحركة الوطنية فى مصر ، وهذا هو الرباط بين الماضى والحاضر فى قصصه . ان ثقافته المسرحية التى استفادها من المسرح الفرنسى وغيرها ، شجعته على ادخال الشخصيات الثانوية المرحة حتى فى المآسى ، لان الحياة لا يمكن أن تكون مأساة على طول الخط ، ثم ايضاح ملامحها والقاء الضوء عليها والاهتمام بها ، لأن صراع الأبطال دائما وراءه هذه

---

(١) كتب شوقى غير هذا قصة « ورقة الآس » وتدور حوادثها حول «النضيرة بنت الضيزن ملك الحضر حينما دخلت تلك البقعة فى ملك سابور الفارسى . ثم كتب بعد ذلك شيطان بنتاءور وهى محادثات ومحاورات بين الشاعر المصرى القديم بنتاءور والشاعر المصرى الحديث أحمد شوقى ، وتقارن بين حال مصر أيام مجد الفراعنة وحالها زمن الاحتلال ، وبها نظرات اجتماعية صائبة ، ومن أجل ذلك كانت هذه المحاولة تمهيدا لظهور حديث عيسى بن هشام للمويلحى التى ظهرت بعدها بست سنوات .

الشخصيات التي تقوم بدورها في التنافس ، وعلى قدر جهده حاول تطوير هذا الصراع الى العقدة فالحل .

والتقى بصديقه شكيب ارسلان على غير موعد ففاجأه بقوله :

ـ لقد قرأت قصتك ياشوقي عن عذراء الهند ، وهي قصة جيدة .

ـ ولكن ترى كيف يستقبل النقاد هذه المحاولات الجديدة ؟ أن أغلبيتهم من اللغويين الذين يقدسون القديم ، ويهاجمون كل جديد لأنه في نظرهم خارج على المألوف . وهل نسيت كيف استقبل المويلحي الطبقة الأولى من الشوقيات في صحيفة « مصباح الشرق » ؟ ان المقدمة نفسها كانت في نظره بدعة .

ـ بل أذكر ، ولعلك تذكر أني لم أستطع صبرا ، فرددت عليه بمقالتي في جريدة المؤيد متعجبا من مكابرته ، لأن كثيرين من فحول المؤلفين قد ترجموا أنفسهم مثل لسان الدين بن الخطيب في الاحاطة والسيوطي في حسن المحاضرة .

ـ نعم ، فقد قطعت حجته ، وبعد أن كانوا يرمونه بالحسد والتحامل ، جعلوا يرمونه بالجهل والتطاول ، فسبحان من جعلك جلاد لأعدائي .

ـ وقد تشفيت فيه انت بعد ذلك حين صفعه « محمد نشأت » ، ووالله ما ذكرت مقطوعاتك الساخرة فيه الا انفجرت ضاحكا ، دون أن يدرك من معي لذلك سببا ، اني أحفظها جميعا ، ولكن أشدها استثارة قولك :

ورثت الحــــلم عن فحــــل كريم
ففيك الحــلم عنــد الصــفح عــادة

وشــــــأنك بيننـــــا فى أرض مصر
كشـــــأن أبيك فى دار الســـــعادة

***

لقــد نقـــل الراوون عنى حــكاية
وقالوا كلامــا ما أشــد وأشـــــأما

ايصـــفع مثـــلى ناشىء ويراعتى
أسالت دموع القوم فى مصر عنـدما

ألا اعتذروا لى عنـــده فأنا الذى
صــفعت بصـــدغى كفــه فتألمــا

— يا أخي كأنما النقاد قد شغلوا بى ، فلم أكد أفرغ من المويلحى حتى ظهر « داود عمون » .

— أذكر أنه ضايقك بنقده حين نشرت قصيدتك « بات المعنى والدجى يتبلى » (١) ، فقد توقف عند جزئيات ، فأخذ عليك قولك « اللابس التاجين فى المحفل » ولم يستطع الا أن يقول انه لا معنى للبيت في الحقيقة — ولا فى المجاز ولكنها القافية قضت فأطاع . ووقف عند شطر البيت « ما أنت يا أسود الاخلى » فاتهمه بالركاكة ولم يوضح ولم يأت بالدليل ، ثم عند شطر آخر تقول فيه :

« والكأس لا تغنى ولا تمتلى » فلم يفهم مغزاها وعلق قائلا : ما ضره لو امتلأت الكأس التى يسقى بها والجوى مديرها ، ولما لم يجد شيئا مقنعا فيما قال وقف عند ملاحظة نحويه غير

---

(١) المقطم ١٨٩٦/١١/٧ .

مقنعة هى الأخرى فقال ان عطف « الفضل » على « عدله » من محال الضعيف ولكنه موجود .

غير أنك ياشوقى لم تسكت فقد هاجمته فى احدى قصائدك، وما زلت أحفظ أبياتك :

ويمنعنى من حاسدى ابن محمد
خلاف وشعب بيننا الدهر منسد

فلا حكمتى دعوى ولا منطقى هوى
ولا مبدئى لؤم ولا قلمى وغد

قواف لرب الشعر لا النظم طائل
اذا هى سارت فى البلاد ولا النقد

وسكت شكيب فسكت شوقى ولكن كلا منهما كان يعلم ما يجول بذهن الآخر ، فقد رد « داود عمون » بأبيات عنوانها « داء ودواء » جاء فيها (٢) .

اجب قلمى داعى الخصام فلا بد
فقد بدت البغضاء وانكشف الحقد

واشرع قوم للبذاء وشيجهم
سراعا الى الصوراء تعدو بهم جرد

على غير ذنب غير أنى مدحتهم
بنقدى والجعلان يؤلمها الرد

انابغة العصرين لا العصر وحده
أمن ذاك هاج الضغن وارتحل الرشد

---

(٢) الشوقيات المجهولة ص ٨٥ "

أكل الـذى خطت يمينـك منزل
وكل الذى يلقيه فوك لنا الشـهد

جمـوع لاشـتات العلوم مفـوه
(فلا مبدئى لؤم ولا قلمى وغـد)

على أنه لو كان خصـمى منصـفى
لكان جزائى عنده الشـكر والحمد

فـانى قـد داويته مـن غـروره
ولولاى كان الداء ينمو ويشـتد

وقطع شكيب هذا الصمت الذى دام لحظات ، وهـو يطمئن شوقى أنه سوف يرد ان وجد شيئا من التحامل فى نقد ناقد .

ولم تكد تمضى أيام ، حتى نشر ابراهيم اليازجى نقدا لرواية « عذراء الهند » فى مجلة « البيان » يقول فيه : « والذى تبين لنا بعد تصفح جانب منها ان مؤلفها لم يقصد من صنعها الا تمثيل ما كان عليه أهل ذلك العصر من الخرافات والترهات ، ولذلك أكثر فيها من ذكر الجن والعفاريت والسحرة والكهان والمنجمين والرقى والطلاسم ... لم نجد شيئا مما يتوخاه واضعو الروايات فى هذه الأيام من المغازى الحكيمة أو الأغراض الأبية أو الحقائق التاريخية ، ولذا فاننا نتخطى موضوع الرواية الى ما ألبسته من العبارة العربية .. » (٢)

وألقى بالجريدة الى جانبه ، وقد استبد به الضيق الشديد. ويل للكتاب من النقاد ، يفنى الكتاب أيامهم ولياليهم فى القراءة والبحث وعناء التأليف شهورا طويلة أو سنين ثم يأتى ناقد يقرأ

---

(١) الشوقيات المجهولة ص ٨٥ .

(٢) «البيان» عدد ١٨٩٧/١٢/١٦ .

العمل الفنى فى ساعات وهو مسترخ ، ويخط انطباعاته بعد ذلك، ولا بد أن يجسم عيوبا حتى يكون ناقدا . اهذا هو النقد الأدبى فى عرفهم ؟

لماذا لا يعنى الناقد نفسه بالبحث والتقصى وراء المؤلف ليتبين تزييف التاريخ أو حسن الادراك والفهم الصائب ؟ لماذا لا يقدر جهد الأديب الى جانب اظهاره لبراعته فى اقتناص الأخطاء اللغوية • لقد هدأت الرغبة فى التجديد وانطفأت الحماسة • سوف يقولون ان حياته فى القصر لوته عن رسالته ، ولكن الأديب لا يعينه في الواقع قديم ولا جديد فهو ابن الماضى والحاضر والمستقبل ، وليس اختلاف الشعراء فى الواقع الا صورة لاختلاف نفوسهم فى الحس والاهواء والنزعات ، ان الأدب المصرى والبغدادى والأندلسى ليست الا صفات لزمان الشاعر العربى وبيئته .

تسعة يام مضت ، ثم وجد شكيبا يرد على اليازجى مفندا مزاعمه ، ناشرا تعليقه فى كبرى الصحف « الاهرام» . (١) واحس بالراحة وهو يقرأ التعليق : « وأما اعتراض البيان على (أحب أخوته الكثيرين الى الأمم) بأنه من التراكيب التى منعها أهل العربية حسبما نص على ذلك الحريرى فى درة الغواص وأن رد الخفاجى عليه لا يسلم من الرد ، فأقول فيه : ان الرد على الخفاجى لا يسلم من الرد أيضا . كقولهم : ان أفعل التفضيل قد يكون للدلالة على زيادة مطلقة لا مقيدة نحو يوسف أحسن أخوته . وناهيك ان نحويا كابن خالويه أجاز هذه العبارة • وأخذ البيان عليه قوله : (وامتنهم اعلاقا فى القلوب) وذلك بأن الاعلاق جمع علق بالكسر وهو الشيء النفيس وان حقها ان تكون علائق . وقد

---

(١) الاهرام ٢٥/١٢/١٨٩٧ .

استغربنا وأيم الله صدور ذلك عن لغوى ثقة مثل الشيخ . والاعلاق تأتى جمعا لغير العلق بالكسر فتأتى جمعا للعلق بالتحريك وهى بمعنى الحبل المعلق بالبكرة ... وأظن أن فى ذلك من معنى العلاقة والتعليق ما يسوغ لشوقى أن يقرنها بالمتانه فى معنى ارتباط القلوب . وأما كون « الرأى العام » من المواضعات الافرنجية ، درجت عليها الجرائد فى هذه الأيام وليس كل ما تأتى به يجوز اتباعه ، ومعناها (اهواء النفوس) ، فانها لا تؤدى حقيقة المقصود من قولهم (الرأى العام) . ومن العجب ان يعترض على مثلها البيان وهو الذى يكتب فى « اللغة والعصر » . تصل الى قول شوقى فى التاريخ المصرى (إن الحقيقة معه لا يستقر بها خبر ، فهى عين تارة وأثر تموت بحجر وتحيى بحجر) ومعناها ظاهر اذ لا يخفى أن التاريخ المصرى القديم مبنى على الآثار الحجرية ، ولا أرى هذه الجملة فى شىء من الطلاسم والرقى كما قال البيان » .

وذهب الأثر السيىء الذى خلفه نقد « البيان » في نفسه ، ولكنه فتح عينه معا على أمر مهم ، فالنهضة الأدبية التى يبغيها جزء من كل ، هى جزء من النهضة الوطنية ضد الاستعمار ، ولذا ينبغى ان تستوحى النهضة الأدبية التراث العربى وتتخذ منه قاعدة انطلاق فى تطور أشد اتزانا ، وليس من الممكن أن يتخطى هذا الدور فى النهضات والا اقتلعنا جذورنا بأيدينا . وادراك هذه المسئولية شىء خطير ، وعلى أكتافه سوف ترسخ قاعدة الانطلاق. ان جمهوره الكبير سيهتم بكل شاعر يعارضه ويعود الى قراءته ، ومن هنا ينبغى ان ينطلق فيعارض الفحول أبا تمام والمتنبى

والبحترى والمعرى والحصرى والبوصيرى وغيرهم . ولكن المهم ألا تفنى شخصيته فى هذه المعارضات ، وانما ينبغى أن يحاول الوصول الى ذلك المستوى الرفيع مقابلا الصورة الموروثة بصورة عصرية والمعنى المكرر بمعنى مبتدع والصياغة الجيدة بصياغة لا تقل جودة . وعندها قد لا يستطيع ناقد ان ينفذ بسهامه وهو فى نفس الوقت لن يتخلى عن السير فى موكب التطور فتلك طبيعة العصر لا خلاص له ولا لغيره منها ، وفرق بين التطور الذى تمليه الحياة وبين التطور عن قسر ، أما الحيرة بين القديم تارة والجديد تارة أخرى فلن تضىء له الطريق ، ولن تزيده الا احساسا بالقلق وبالتردد ، فوداعا للحيرة اذن ، ووداعا للتردد .

مع الكروان

دخل الحفل ، فتهامس الحاضرون وقد عرفوه : حافظ ابراهيم !! طويل ضخم ، عظيم الأنف ، خفيف الشارب ، كأنه خيط ملتصق بشفته العليا ، فهو بشارب الصينيين ألصق . يمشى كأنه مقيد فى انحناءة يسيرة ، تخاله أسيرا فى روما القديمة ، اثقلت رجليه القيود وبهظه حارس بثقل من الحديد فوق كاهله . اتسعت عليه ثيابه ، فلاح فيها كتلك الشخوص التى تنصب على الكروم أو على البيادر لإفزاع الطير ، بعيدة عن الاناقة بعد وجهه عن الوسامة ، يتوكأ على عصا من الخيزران غليظة ، انثنى رأسها انثناءة واسعة ، وقد تطوقت بطوق من العاج المنقوش ، وتقدم من المنصة ثم أنشد بصوت قوى رخيم :

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا
واقضوا هنالك ما تقضى به الذمم

وسكت الجمع كأن على رءوسهم الطير ، أو كأنهم يستمعون الى لحن منسجم رائع ، وارتفع الصوت قليلا قليلا حتى تحول الى ايقاع شديد النبرات ، وضج الحاضرون من الانفعال ، وماجت حناجرهم ثم غضوا عيونهم الدامعة مع خفوت الصوت مرة أخرى ، وقد سلبت ألبابهم وانتزعت قلوبهم من عنف الوجيب عندما وصل الى قوله :

انى أرى ، وفؤادى ليس يكذبنى
روحا يحف به الاكبار والعظم

اری جــلالا اری نــورا اری ملكا
اری محیـــا یحیینـــا ویبتســـم

الله أكبر هـــذا الوجـه اعـــرفه
هذا فتى النيـل هذا المفرد العـلم

غضوا العيـــون وحيـــوه تحيتـه
من القـلوب اذا لم يســـعد الكلم

واستمرت القصيدة متماوجة النغمات ودميت الاكف من التصـفيق وانتشت الارواح ، وارتعشـــت الشفاه كأنما تفيض بحماسة الافئدة ، ثم اذكى جنة الناس فى ختام القصيدة وترك مكانه وهو يهتف :

يا أيها النشء ســـيروا فى طريقتـه
وثابروا رضى الاعـــداء أو نقموا

فكلكم « مصطفى » لو ســـار سيرته
وكلكم ((كامل)) لو جازه الســـأم

وخرج الجمع ، وخرج شوقى مع الخارجين وعلى وجهـه علامات الانفعال . أتراه انفعل مع القصيدة كما انفعل الناس ، أم تراه انفعل لهذا النجاح الكبير الذى لقيته القصيدة .. انه لا يقوى على الالقاء ولم يلق قصيدة قط فى حياته ، وها هو ذا منافســـه يجيد الالقاء ويتفوق فيـــه دون منازع له ، فينتزع الاعجاب انتزاعا مهما كان مستوى القصـــيدة الفنى ، ومع ذلك فالقصـــيدة ثرية بالأحاسيس ، يزيد من ثرائهـــا هـــذا التوزيع الموسيقى الرائع . وحين ركب شوقى عربته وغاب عن الانظار انفجر أمام العبد بالضحك ، فقد كان يلحظ انفعالاته وهو يسير الى جوار المنفلوطى ، وابتدره قائلا ،

ـ لقد تفوق حافظ فى الوطنيات على شوقى ، فشوقى لم يقل اليوم في ذكرى مصطفى كامل ، وحتى قصيدته التى قالها فى العام الماضى ، حين مات مصطفى ، لم تكن أكثر من آهة حزن يطلقها صديق لوفاة صديقه ، كأنه لم يكن زعيما وطنيا ، انه القفص الذهبى ، فبعد ان اختلف الخديو مع مصطفى كامل لم يستطع شوقى أن يقول الا ما قال ، وهذا ما جعله يضيق به ويحقد عليه .

ـ يا أخى .. ما أطول لسانك ، ان شوقى لا يحقد على أحد ، فهو الذى سعى لدى جريدة «الأهرام» يوم عاد «حافظ» من السودان مطرودا من الجيش ، ولكن صاحب «الاهرام» هو الذى رفض تعيين «حافظ» خشية «كرومر» واليوم .. بعد عشر سنوات يسعى له مرة ثانية فى الحصول على رتبة الباكوية.

ـ ان التنافس وضح بينهما فى اللقب ، فشوقى كان شاعر الأمير ، فأسرع « على يوسف » وأطلق على « حافظ » شاعر النيل وشتان بينهما ، فشاعر الامير انما ينسب الى واحد ، وشاعر النيل ينسب الى المجموع الذى يستقى من هذا النهر الخالد ومنهم الامير نفسه ، ولم يعوز شوقى السعى الى صحف أخرى ، فلقبوه أمير الشعراء ، فأصبح شاعر النيل رعية لامير الشعراء ، ولكن المسألة ليست مسألة ألقاب، فأنت ترى الجماهير وكيف تتعلق بوطنيات حافظ .

ـ أى وطنية يا أمام ؟ ان حافظا مذعور القلب فى غير ذعر ، وقلما تغفل لطائر الذعر عين الا فى الأحيان النادرة . وهل نسيت قصيدته فى حادثة دنشواى ؟ كلها استخذاء ، «جاء جهالنا بأمر» وجها لنا هم المواطنون الابرياء من تهم الانجليز وتهم حافظ نفسه ، وماذا يعنى حافظ بقوله « من ضعيف ألقى اليك القيادا»؟

فهل ارتضينا أن نسلم قيادنا الى المستعمر ؟ ان حافظا علم من أعلام الشعر الذين ينتظر منهم التوجيه السليم والقدوة الحسنة، وهو ليس صاحب ذرية فنعتذر له بالخشـــية عليهم · ثم تلومون شوقى لأنه لم يعرض لهذه الحادثة الا بعد مرور سنة ، وهو فى نظرى قد سلك مسلكا اكرم من مسلك حافظ ، لأنه لاذ بالصمت حتى تحين فرصة القول . لقد كان الاخلق بحافظ ان يشجع مواطنيه ويستحثهم على استنفاذ وطنهم من الاحتلال ، مذكرا أياهم بمجدهم الغابر كما يصنع شوقى · شوقى يصور لنا من حياتنـا ناحية الكبرياء الجريحة ، أما حافظ فيصور ناحية الثورة الهزيمة. وهل نسيت قصيدته فى « وداع كرومر » ؟ لقد عود فيها اياديه البيضاء بينما ندد شوقى بسياسته وشهر بأعمال الانجليز · ومهما قيل من تبرير لجرأة شوقى على كرومر ، فقد كان حافظ يستطيع ان يصمت كما صمت شوقى فى دنشواى . وحتى قصائد المديح عند شوقى ، تمور بنغمات الوطنية المتوثبة ، حين يردد عن ثقة أمله فى استعادة الاستقلال ويذكر بالماضى المجيد . وربما كان بؤس حافظ هو الذى صبغ شعره جميعا بألوان التشاؤم . ولا اشك فى وطنيته وحبه لبلده ، ولكنه شاعر لا نهج له ووطنياته تقال فى فورة الأمر فلا تخطىء هدفها في وقتها أما بعد ذلك فلا (١) .

ـ مهما قلتم يا أصحاب شوقى ، ومهما تعصبتم له ، فان روائح العثمانية تفوح منه قوية نفاذة ، هو شـــاعر الجامعة العثمانية ، اما حافظ فهو شاعر القومية المصرية ، وكثيرا ما يردد ان حياة الأمم كحياة الافراد تبدأ من الداخل وتقوى وتشتد من الداخل أيضا ، فاذا توافرت فيها أسباب القوة استطاعت ان

---

(١) راجع حافظ ابراهيم لعبد الحميد الجندى (فصل الوطنية) .

تنهض وتحافظ على استقلالها وتدافع عن حريتها
ذلك فهو يصب سهامه على كل مصرى مارق أكثر مما ي
على كل مستعمر ، لأن من الطبيعى ان يكون المستعمر بـ ... .
وحافظ لا يعترف بتفوق شوقى وقد اظهر كل عيوبه الفنية فى
كتابه « ليالى سطيح » حيث قال : « وهو فارغ للشعر غير مشغول
بغيره ، فالعجب ألا يجيد ، واعجب منه ان يقال انه مكثار
وقصائده فى العام معدودة وقوافيها مقدرة محدودة .. ولو منح
دقة المبانى ما منح من رقة المعانى فسلم أسلوبه من ذلك التعقيد
الذى اخلق ديباجته لكان شاعركم غير مدافع ، ولكنه لم يغادر
معنى من معانى العرب والفرنجة الاسلخه ومسخه فما عسى ان
يكون فخره علينا ؟ (١) وغمزه فى بعض شعره ذاكرا أنه أشعر
منه ، مثل قوله :

كم رام شأوى فلم يدرك سوى صدف
سامحت فيه لنظام ووزان

عابوا سكوتى ولولاه لما نطقوا
ولا جرت خيلهم شوطا بميدان

اليوم أنشدهم شعرا يعيد لهم
عهد النواسى أو أيام حسان

من الاوانس جلاها يراع فتى
صافى القريحة صاح غير نشوان (٢)

ــ يا أمام أنت تعرف كما يعرف كل أديب أن حافظا حاول

---

(١) ليالى سطيح ص ٤٧ .

(٢) ديون حافظ جـ ١ ص ٢٤

مرات أن يكون شيئا عند الامير أو عند الخليفة ، وقد كانت أبواب الخلفاء فى العصور الماضية تتسع لكل الشعراء ، ولكنها ضاقت فلم تعد تتسع ، فحسد شوقى ، وظن انه يكيد له ، والواقع ان ثقافة شوقى الواسعة وتفرغه لفنه كما يقول حافظ ، قد وصلا به الى سمو لا يدانيه حافظ ولا غيره من شعراء العصر ، واذا حاولنا أن توازن بين قصيدتين لهما من الناحية الفنية الخالصة ، لم نجد مجالا للموازنة . وهل نسيت ، قصيدة شوقى فى « عيد الفداء » التى قالها منذ أشهر وكيف اثارت ابياته ضجة أدبية هائلة : (١)

قلبى ادكرت اليوم غير موفق
أيام انت مع الشباب موفق

فخفقت من ذكرى الشباب وعهده
لهفى عليك لكل ذكرى تخفق

كم ذبت من حرق الجوى واليوم من
أسف عليه وحسرة تتحرق

ولم يستطع حافظ أن يقول شيئا أمام غزل شوقى ومديحه، فاعترف له بالتفوق فيهما واراح نفسه من المنافسة فى قصيدته التى قالها فى نفس المناسبة ومن نفس البحر والروى ، فلم تثر فى القراء الا الاشفاق .

— لا تظن اننى أهون من شأن شوقى أو أبغضه ، فالواقع

---

(٢) حاشية الشوقيات ج ١ ص ١٩٢/١٩٣ .

انی أحبه وأحب شعره كما أحب مداعباته . فقد كنت أجلس بالأمس مع حافظ ومر بنا شوقی ، فانفجر ضاحكا وهو يقول : « انتم قاعدين زی الملاحة ــ أبيض واسود » . ومهما يكن من أمر فهما أكبر شاعرين فی الوطن العربی ، ملآ الدنيا وشغلا الناس . وأنا أعرف مدى اعجابك بشعر شوقی ، فاعلم اذن كی تستريح أنی اعتبرهما قريبا من قريب .

ساقى الطلا

كان يسير متجها صوب حانة « سان جيمس » ، يده فى عروة الصدرية ، تلك عادته ، وبنيقته المنشاة يتعلق بها « ببيونه » ، كبير الرأس صلت الجبين ، تظهر صلعته من تحت طربوشه الذى انزاح قليلا الى الوراء ، لا تحس بأناقته رغم أنه يتحلى بأفخر الثياب • واذا دققت النظر لمحت ارتعاشة يده ، خاصة حين يمسح بها على جبينه من حين الى حين ، تتجول عيناه فى كل اتجاه كأنما يبحث عن شيء ، بينما استقر شاربه الكث الذى ظهرت به شعرات بيضاء فوق شفتين منطبقتين ، لا تعبران عن شيء • لقد تخطى الأربعين ، وسرى الشيب متئدا فى فوديه ، وها هو ذا يستقر فوق مقعده المرتفع أمام الساقي ، ثم يتمتم كأنما يفهم عنه الساقى ما يقول من شعر :

لا تسقنى الا دهاقا اننى   اسقى بكأس فى الهموم دهاق

نعم ، فشاربها يفر من هموم الحياة ، ويغرق أشجانه فى الكئوس ، ويحلق بعيدا بعيدا الى حيث عالم الرؤى ، يطلق العقل الباطن من عقاله ، لسان الحقيقة بلا زيف ولا رياء • اليس من الحق الصراح ان الموت غاية كل حى ، ومآل كل حسن ؟ لقد ملك هذا الشعور مذاهب التفكير عليه ، فتهافت على اغتنام فرص الحياة • انه محب للحياة ، مقبل عليها ، ولكن تفاؤله تحجبه بعض صور الوجود الداكنة ، فيشفق من النهاية المأساوية الكبرى • وهو فى هذا شبيه بالحسن بن هانيء عاشق الطلا ، فى كثير من المواقف الحسية والنفسية ، قلق دائب بين الحياة وبين الموت ، وتردد أبدا

بين متاع الدنيا وبين رحاب الدين . انم يسرف أبو نواس على نفسه حين فر من الحج ثم قدم الأعذار ؟ وحين كان ينتهى شهر الصوم فيستقبل هذا العطشان الى الخمر أيام العيد بقوله : « ولى الصيام وجاء الفطر بالفرح ، وابدت الكأس ألوانا من الملح » ألم يبرر شربه للخمر بنفس الأعذار ؟ ثم ألم يلذعه الندم فيصرخ مستجيرا برحاب الله ، هذه الصرخة المدوية «يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر»، انه حين يحاول فهم ابن هانىء ، يشرح نفسيته هو ، فى القلق النافر أبدا ، والتردد الدائب بين اللذة وبين الندم ، حتى فى القصيدة الواحدة ، أعنى فى اللحظة الوحدة ، ألم يقل مثل قوله ابن هانىء :

رمضان ولى هاتها يا ساقى — مشتاقة تسعى الى مشتاق
الله غفار الذنوب جميعها — ان كان ثم من الذنوب بواق
ما كان أكثره على الافهما — واقله فى طاعة الخلاق

أكبر الظن ان عصور النقلات الاجتماعية مسئولة الى حد كبير عن كل هذا ، حين تمتزج الحضارة العربية الاسلامية بحضارات أخرى طابعها الاقبال على الملذات ، فتختل الموازين والتقاليد وتتزعزع القيم ، أو حين يتجاور القديم والجديد ، والموروث والعصرى ، فى الفكر وفى الحياة الاجتماعية . أهو مجرد تبرير ؟ ليكن ، غير ان النفس تستريح اليه .

ودخل اسعاف النشاشيبى ، فاستقبله فى غير ترحيب كبير ، كأنه يفضل الوحدة التى قطعها عليه هذا النديم ، فلم يدعه يسترسل فى أفكاره ، وأحس النشاشيبى بذلك ، فبادره قائلا :

ـ اعرف انك ضيق الصدر هذه الأيام .

ـ ولماذا لا يضيق صدرى وقد مات عمر لطفى وطوى السرور

كله ، ولم يبق من الصحاب الا من انعدم الوفاء بينهم حتى أصبحت آوثر الوحدة •

ـ اليس الوفاء من رابع المستحيلات كما يقول المثل ؟

ـ ولكن كرم الأخلاق ليس من رابع المستحيلات ، ان الصداقة مشتقة من صدق المودة فأين المودة بين الدسائس والغيبة والاثرة والنفاق ، وكل هذه اللا اخلاقيـــات ؟ قارن بين موقفين ، أتذكر الصحب الذى اعتدت الاجتماع بهم فى محل « صولت » ؟ لم ترتح أنت ولم أرتح أنا لما يدور ، ولكنك غير مقيم فى القاهرة فلا يهمك الأمر ، أما أنا فقد همست لأحد الصحاب وقد رأيت فيه الخير فقلت : عندى موعد ويسرنى لو كنت معى قال : كما تحب واستأذنا ثـم خرجنا ، فلما سألته عن رأيه فيما يدور من أحاديث أجاب : ليس فيها الا الاذى • قلت : ما رأيك اذا تغيبت انا غدا وتسمع انت كل ما يقال عنى وتقابلنى بعد ذلك على أن تصدقنى فوافق ، وتم ذلك وجاءنى فى اليوم التالى ذاكرا ان السهرة انتهت بسيرتى وعلى غير ما أحب • ثم حضرت وغاب فكان الحديث كله حول الغائب • واتفقنا بعد ذلك على ان أبقى ويخرج صاحبى بواحد من الجمع كل يوم لسبب يختلقه ، وهكذا حتى آتينا على أكثرهم فى بضعة أيام ، آخرهم بالأمس ، فكان نصيب كل غائب القدح ، وما وجدنا لسوء الحظ وفيا أو مدافعا عن صاحبه فى غيبته . قارن بين ما حدث هنا ، وماحدث بين النوبيين الذين يعملون عندى ، حين اختلفوا لبضعة أيام لسبب لا أذكره ثم جاءنى بعضهم ذات يوم يطلبون راتب شهر مقدما فلما سألت عن السبب ، عرفت ان زميلهم الذى اختلفوا معه قد أصـــيب ولده فى حادث وهو محتاج الى عونهم ، قالوا ذلك ، وهم يجهشون بالبكاء . أترانى أقوى بعد ذلك على الوثوق بالصحاب والجلوس اليهم ؟

ـ لقد زادك هذا الحادث احساسا بالملل وبالضيق وانت ملول بطبعك تمل قميصك نافر أبدا ولو كان فى الاستقرار والصبر نفعك • ومن أجل ذلك تفر من القاهرة الى الهرم ومن الهرم الى مصر الجديدة ومرة تتجه الى الحسين خاصة أيام الموالد ومرة أخرى تترك من تجلس اليهم من أجل تجوالك فى الأحياء الشعبية ، وأحيانا تحير من يبحث عنك فلا يعثر عليك أبدا •

أتذكر قصة الشارى الذى عقدت معه صفقة رابحة ، ولكنه تأخر عن موعده بضع دقائق ، فاعتراك الضيق ولعنت الصفقة وهممت بترك المكان معلنا فسخها لولا ان حضر الشارى فى نفس اللحظة معتذرا فلم تكلمه حتى وصلتما الى كاتب البيوع ؟ ثم قصة الأساتذة الفرنسيين الذين حضروا لامتحان طلبة مدرسة الحقوق فدعوتهم الى جولة فى القاهرة ثم أحسست بالاختناق وانت تمر بهم فى قاعات دار الكتب وكدت تتركهم لولا خشيتك على مستقبل ولدك الطالب بمدرسة الحقوق •

ماذا أقول لك هل نسيت قصة الشاعر العجوز الذى لقيك في « جروبى » ؟ فابتسم شوقى حتى ظهرت سن له من البلاتين ـ ومن الحق انه كان ركيك الشعر قبيح الوجه ، هجم عليك بسبعين بيتا ، فضقت حتى كدت تنفجر وانهلت عليه تقريعا فشجع تقريعك أحد الجالسين وانطلق كالثور الهائج يجر الرجل بعيدا •

ـ ولكنى أنبته على هذا التصرف وبقيت واجما ، ألوم نفسى على مجالسة هذه الجماعة من العاطلين لأنهم لا يحترمون الا أمثالهم من الفارغين فأنا لا أحب التعالى على انسان مهما صغر شأنه وكثيرا ما قابلت صغار الطلبة مرحبا ولكن سبعين بيتا من الحجر كانت كفيلة بأن تصيبنى بالدوار •

ـ الحق انك تأثرت لأنك تقدس الرحمة في كل مظاهرها وتكره عنف هؤلاء الفارغين .

ـ بل أكره شح النفس وشح اليد .

ـ نعم وهذا مما نحمده لك جميعا فانت لا تبخل بمالك قط بل لعلك تمل حمل المال نفسه فتتركه هنا أو هناك حتى تفرغ من شرابك . ولكنك لا تستطيع أن تسحب انطباعاتك هذه على الجميع ولا يمكن أن تمل خليل مطران مثلا .

ـ الواقع انه رجل « صالون » مهذب رقيق رقة شعره ولكن يغيظني منه أحيانا تصابيه فهو دائما مع فتاة جميلة .

ـ ولكنه رحب الصدر يقابل النكات باسما حتى عندما احرجته حين دخل ، « لاباس » في صحبة غانية فقلت له « يا خليل انت لسه ما همدتش ؟ » وحتى عندما يسخر حافظ من قبح أنفه .

ـ الحق ان حافظا لطيف المعشر ، يعجبني فيه سرعة بديهيته في النكتة فيحيل الجو حوله الى مسرح خالص لذا أحرص على صحبته دائما في رحلاتي الاسبوعية الى الهرم .

ـ ويطيب لك ان تغيظه وتستثيره لترى سرعة بديهته في النكتة مثلما حدث عندما قلت :

وأودعت انسانا وكلبا وديعة فضيعها الانسان والكلب حافظ

فرد على توريتك الساخرة بتورية من نوعها وهو يقول :

يقولون ان الشوق نار ولوعة
فما بال شوقي أصبح اليوم باردا (١)

---

(١) شوقي وحافظ لطاهر الطناحي ص ١٤٦ .

ـ واذا كنت تستطيب صـــحبة حافظ فقد أولعت بالدكتــور محجوب ثابت ، ولا يمكن ان يغير ذلك الحادث من حبك له على ما أظن ٠

ـ انه وحده الذى لا تنتهى طرائفه مع الناس ٠

ـ ولذا فقد أغرمت به فى شعرك وفى ليالى الكرمة فكل يوم له طريفة جديدة ٠

ـ حاول منذ أيام أن يظهر شجاعته فكلفت أحد الجالسين أن ينتظر ضابطا من أصحابنا حتى اذا حضر مثل دور واحد من القلم السياسى حضر للقبض على الدكتور محجوب ٠ وكان محجوب قد أخذ يصول ويجول ويسب الانجليز ، ويكشف عن ساعديه عـــلامة الجهاد وبينما هو كذلك دخل الضابط وقد اصطنع وجهه الصرامة وتقدم رافعا يده بالتحية العسكرية واعتذر لأنه حضر فى مهمة ثقيلة وهى القبض على الدكتور فلم يكد يسمع كلمة القبض حتى زاغ بصره ورفت لحيته واصفر لونه وتراخت أوصاله ونظر الى الجميع ثم تظاهر بالشجاعة ووجد القول لا يضيره بعد أن نزل البلاد ٠ فصاح : «انظروا الى القوة الغاشمة » ٠ فلم يستطع الحاضرون حبس قهقهاتهم من هذه الكوميديا وانفجروا ضاحكين ففطن الى السر وكان فرحه قهقهته أقوى من الجميع وأسرع الى الضابط بحركة من اصبعه ولقبه « بالعيهور » مثنى وثلاث ورباع ٠ وبرغم هذا فقد ضقت به يوما حين استأذنت فى الانصراف فتشبث بى ولو تشبث بى حافظ أو مطران لضقت بهمـا أيضا ٠

ونبهه الساقى الى أنه قد أكمل الكأس الثلاثين ، فتوقف لحظات

ان كل ندمائه قد ماتوا صرعى الخمر ، حسن رضا ، وعمر لطفى ، وقبلهما المطرب المشهور عبد الحى حلمى . وهذه الارتعاشة فى يده .. أليست من اثر الخمر ؟ انه يعرف الكثير من سيئاتها ، وهل هناك أسوأ مما يرى ؟ ولكنه أسير العادة .. ، والنفس بما اعتادت منقادة غير انه يأخذ منها لطربه ، ولا يعطيها من عقله وأدبه .

زحلة

كان يقطع الطريق الضيقة الممتدة فى بطن الجبل متجهـا صوب المقاهى المتناثرة فى نهايته ، ونظر الى الجبل وقد كسته الزهور والاعشاب وأشجار التفاح كأنها ثياب مزركشة بعضها فوق بعض يظهر ذيل كل منها ، وعجب لثياب الفتاة الجبلية التى تحاكى اردية الجبل نفسه ، ووجهها الذى يحاكي تضرة البيئة وزهو الوادى المفراح . وترامت الوديان على مدى النظر خضراء كاسية أو عارية الا من الوان الصخور ، وكان المساء قد أقبل فعربدت الانوار على سفوح الجبل ، وبعث المنظر فى خياله نشاطا غريبا ، فأكمل أبياتا من قصيدته التى يعدها لتلقى فى اليوم التالى بدمشق :

وربوة الواد فى جلباب راقصة — الساق كاسية والنحر عريـان
واقبلت بالنبات الأرض مختلفا — افوافه فهو أصبـاغ والوان
والطير تصدح من خلف العيون بها — وللعيون كما للطير الحـان
وقد صفى «بردى» للريح فابتردت — لدى ستور حواشيهن افنـانْ

وهبت نسمة محملة برذاذ النبع المتدفق على يساره ، وتضاحك الناس وهم يجرون مبتعدين فابتسم ثم أكمل :

ثم انثنت لم يزل عنها البلال ولا — جفت من الماء أذيال وأردان
خلفت لبنان جنات النعيم وما — نبئت ان طريق الخلد لبنـان

أى والله انها لفردوس الأرض ، ولكن « زحلة » وحدها هى التى استأثرت بأكثر الحب . كأن الزمن قد غفل عنها فتركها صورة من الجنة الموعودة . ومن العجيت ان سلسلة الجبال تمتد من لبنان

الى سوريا ، ولكنها لا تلبث أن تتوقف لتفسح مكانا للوادى الخصيب فتهدأ الطبيعة ويجرى نهر « بردى » وادعا حالما ٠

حقا ان الشعر ابن الطبيعة والتاريخ (١) ، فالطبيعة هى أم الفن ، فى أحضانها تتفتق المواهب وينمو الخيال الخصيب ٠ ورؤية ما أبدعته الطبيعة هنا ، وما أبدعه الانسان هناك ، يشحذ البصيرة ، ويمنح ذخيرة من الخبرات ، ويعصف بالقلق الذى يلاحق الفنان فى كل حين ٠ وأراحته الفكرة ، فكرة القلق يقذف به من حالق ، فيهوى الى الوادى وتسحقه الصخور ٠ أما التاريخ فهو ابو الفن ، لأن الماضى مسرى الخيال ، وهو أشبه بهذا النبع الذى لا يجف ولا ينضب ، تنطلق منه الأساطير والحوادث الجليلة والشخصيات صانعة البطولة ٠ وهكذا فعل « فكتور هوجو » قبل أن يكتب « أساطير القرون » ، وهكذا هو أيضا ، فقد أغرم بمخلفات الطبيعة والتاريخ فى نتوء بارز من جبل ، وفى مئذنة قديمة أو حتى ضريح مشهور ، ولا يغيظه شىء أكثر من أن يرى الناس تسكن الى جوار أثر قديم ثم لا تعرف عنه شيئا ٠٠ انه اهدار لجهود الآباء ورموزهم ٠ وتذكر يوم كان مدعوا الى الغداء عند زوج شقيقته ورأى مسجدا أثريا فكفت يده عن الطعام وتعلق بصره بالمسجد وسأل مضيفه عنه ، فلم يجد عنده جوابا ، وانهال عليه تقريعا ولوما ٠ لقد كان جديرا بالتقريع ، ناظر مدرسة تقع مدرسته ويقع بيته الى جوار أثر قديم يراه كل يوم ولا يسأل عنه ، ما هذه الجهالة ؟

لولا هذا الالتفات ما استطاع أن ينظم قصائده التاريخية أو بمعنى آخر ، التى امتزج فيها التاريخ بالطبيعة عبر الزمن ٠ فقد قرأ الكثير قبل أن يكتب فى النيل قصيدته « من أى عهد فى القرى

---

(١) راجع مقدمة الشوقيات القديمة ، ولا شك ان هذه الفكرة قد تعدلت بعد ذلك حين وجه فنه للمجتمع ٠

تتدفق » . ثم زار أسوان من أجل أن يرى القصور فى اليم غرقى، ويشاهد النقوش الباقية على الأيام ، قبل أن يكتب قصيدته فى قصر « أنس الوجود » .

ان الشاعر يطوى السنين القهقرى ، وينفض عن كل أثر غبار الدهر ، فيعيش بين الاحراش وفوق الجبال وعلى رمال الصحراء فى ذلك العالم المسحور لحظات يتوقف فيها الزمن . وترامى الى سمعه صوت المغنية ينساب عذبا رقيقا بأبياته فى « زحلة » :

يا جارة الوادى طربت وعادنى ... ما يشبه الاحلام من ذكراك
قسما لو انتمت الجداول والربى ... لتهلل الفردوس ثم نماك
مرآك مرآه وعينك عينه ... لم يا زحيلة لا يكون أباك
ضمت ذراعيها الطبيعة رقة ... صنين والحرمون فاحتضناك
سكنت نواحى الليل الا أنة ... فى الايك أو وتراشجى حراك

وعندما جلس الى رفيقه الذى كان بانتظاره ، حياه الجالسون وقد عرفوه ، وسرت همهمة بينهم تفصح عنه لمن لم يعرفه ، ثم ام يلبثوا ان استغرقوا فى السماع ، ولم تعد هناك الا آهات تسمع من حين الى حين تقطع سكون الليل . ومال عليه رفيقه هامسا :

ــ ترى من جارة الوادى ؟

ــ انها أمامك .

ــ ليس أمامى الا هذا الفحل ، زوج المغنية .

ــ أقصد المغنية نفسها ، فما جئت هنا الا واحببت ان أستمع اليها ، فصوتها حنون رغم ان أفقها ضيق .

ــ وهل لك جارة فى كل واد ؟

ـ الحق أنى انفعل بالحب لكل بلد اسلامى حبته الطبيعة جمالا، وحياه التاريخ آثارا ، مثل الآستانة التى اغرمت بها حتى اشتريت هناك منزلا ٠

ـ أظن ان الخديو هو الذى اغراك بهذه الرحلات الى الاستانة ، فهو يذهب اليها كل عام ٠

ـ كنت أستطيع الاعتذار لو أردت ، وقد اعتذرت عن السفر فيما هو أخطر ولكن الدافع كان قويا ، والاغراء جاء من كل اتجاه ، خاصة حين احتفى الخليفة بى وأنعم على وقربنى ٠

ـ وهل كان « عبد الحميد » يهتم بشىء ؟

ـ الواقع انه كان رجلا متواضعا مثقفا عكس ما يشيعه الاستعماريون عنه ، فقد أرادوا تحطيمه ليرتعوا فى ممالكه ٠ الم يدع الى جمع الشمل ؟ الم يقل لهرتزل الصهيونى عام ١٨٩٦ « لا أقدر أن أبيع قدما واحدا من البلاد لأنها ليست لى بل لشعبى ٠ وسوف نغطى الارض بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا » ؟

ـ ربما كانت قطرات الدم التركى هى التى ربطتك عاطفيا بدولة الخلافة ٠

ـ ربما ، ولكن الرابطة الدينية هى الدافع الاقوى كما تدفعنى وطنيتى الى الاشادة بمصر ، ولا تعارض بين العاطفتين ، فتلك فلسفة الحزب الوطنى ، ولا تنس انى أحب لبنان وسوريا نفس الحب ٠

ـ وجارة الوادى ؟

ـ نعم ، وجارة الوادى ٠

وكانت المغنية قد انتهت من اللحن ، فتعالى التصفيق ، وتقدم رفيق شوقى يسألها عن الشاعر الذى نظم هذه الأغنية الجميلة ،

فأشارت بكل زهو ناحية الفحل الجالس ، وقالت : زوجى ، وضج الحاضرون بالضحك (١) ٠

وقام يقطع الطريق مع رفيقه الى دمشق تلبية لدعوة « محمد العابد (٢) » ، وانطلقت السيارة بهما فى سرعة جنونية ، تلتوى التواء الجبل ، وهمس شوقى لرفيقه : اقرأ سورة « يس » فهكذا السواق فى لبنان ٠ وقبل أن يتم كلمته كانت السيارة تتلوى مرة أخرى لكن حول نفسها ثم توقفت ٠ وقاما فى أسوأ حال ، ولكنهما نظرا فوجدا الهاوية السحيقة على بعد أقدام قليلة فاجفلا واستهانا بالرضوض وألمها الطفيف ٠

وفى صباح اليوم التالى كانا فى طريقهما الى صلاح الدين يقطعان الصباح فى الزيارة قبل تلبية الدعوة ٠ والتفت شوقى الى رفيقه متسائلا :

ـ ألم تقرأ شيئا عن صلاح الدين ؟

ـ بلى ٠

ـ اذن تفخر بهذه الزيارة التى نقوم بها ٠

ـ لا شك ٠

وعندما وقفا أمام الضريح أخذ ينقل الطرف حوله وينظر الى ما سطر بالحوائط وهو يهمس : « هذا هو الخلود ٠ هذا همه ، هذا أمه ، هذا مجد ، هذا فخر ، أنظر كيف طوته الأرض وهى أبدا تطوى ، ولكن ذكره باق حتى تطوى الأرض السماء (٣) ثم أغرورقت عيناه بالدموع ٠

---

(١) اثنا عشر عاما لاحمد عبد الوهاب ص ٦٠ ٠

(٢) رئيس الجمهورية فيما بعد

(٣) اثنا عشر عاما ص ٥٦

ان الرواية لم تتم فصولا

كان صيف عام ١٩١٤ حارا ملتهبا ، فقد دخلت انجلترا الحرب ضد المانيا فى أوائل أغسطس لذلك شرعت منذ اللحظة الاولى تمهد الأذهان وتهيىء الظروف لاحداث التغيير المنتظر فى مركز مصر القانونى ، وكانت انجلترا علم تعلم اليقين ان الدولة العثمانية ستحارب الى جانب ألمانيا ، ولم يمض قليل حتى كان الاتحاديون فى تركيا يحالفون الألمان فى سبيل ما يحلمون به من سيادة الطورانية، فزجوا بتركيا فى حرب لا مصلحة لها فيها ، على الرغم من معارضة الخليفة «محمد رشاد» وأعلن الخليفة الجهاد مضطرا ، ودعا اليه المسلمين فى أقطار الأرض ، ولكن دعوته لم تثمر الا قليلا . فالذين تأثروا بها من مسلمى الهند ومصر لم يكونوا فى واقع الأمر يملكون سوى العطف عليها بقلوبهم . وأما الشريف حسين فلم يكن رجال تركيا الفتاة فى نظره الا مجموعة من الملاحدة ، ولم يستطع أن يستسيغ هذه الدعوة العجيبة الى الجهاد الاسلامى مع اشتراك دولة مسيحية فيه وهى ألمانيا ، ولذلك أخذ يماطل فى دعوة الاتحاديين أياه الى تأييدهم .

وكانت الغيوم قد تلبدت قبل ذلك فى سماء السياسة العربية التركية ، والصراع يحتدم بين فكرة العروبة وفكرة التتريك، ويئس العرب من الاتحاديين ، وبدأوا ينفضون ايديهم من الآمال التى علقوها عليهم ، ورأوا ان العمل الايجابى قد حان وقته ، وهكذا اكتسبت « القومية العربية » أنصارا عديدين فى وقت سريع ، وأصبحت عاطفة تملأ القلوب (١) .

(١) القومية العربية والشعر المعاصر للمؤلف ص ٢٨ وما بعدها .

ومن الطبيعى ان يفكر القوميون العرب فى مصيرهم بعد أن اتضحت خطة الحكومة التركية ، وان يوازنوا بين خطة الدوام على السكوت وخطة الانقضاض على الدولة الى جانب الحلفاء • فالسكوت نهايته مرة على أى الحالين ، اذا انتصر الاتراك ، فالتتريك هو النهاية المحتومة للبلاد العربية، واذا انتصرالحلفاء فالعرب أعداء حرب• أما خطة الثورة على الأتراك ، فان نهايتها أحد أمرين ، أما أن ينتصر الأتراك فتكون النهاية السابقة وهى التتريك ، وأما أن ينتصر الحلفاء ، وفى هذه الحالة تبقى البلاد محتفظة بكيانها القومى ، وبلغتها العربية • ويخطىء من يظن ان الثورة العربية قامت على أكتاف الحسين بن على وآله وحدهم ، فالحقيقة ان تلك الثورة كانت ثورة الشعوب العربية التابعة للدولة العثمانية •

واسرعت الاحداث فى مصر ، فقد أعلنت الاحكام العرفية ، وفرضت الرقابة على ما ينشر من الصحف المحلية وقبضت سلطات الاحتلال على جميع أعضاء الحزب الوطنى كما قبضت على الكثيرين لمجرد الشبهات وتبع ذلك نفى وتشريد وتحديد اقامة وطلبت من هيئة كبار العلماء ان تصدر منشورا تنصح فيه الناس بالتزام الهدوء والسكينة • ثم أقدمت على خطوة أخرى فخلعت الخديو عباس الذى لم يخف عواطفه وميوله الودية نحو العثمانيين ، وكان فى ذلك الوقت مريضا بتركيا • وقبل السلطان حسين كامل العرش ، ولكن الشعب قابل الموكب السلطانى بالوجوم وارتسم الحزن على الوجوه نتيجة كل تلك الاحداث ، وتوالت بعد ذلك الاغتيالات السياسية •

فى ذلك الصيف الحار ، كان شوقى فى الاستانة عندما أعلنت الحرب في شهر أغسطس ، وقد رغب فى البقاء الى جانب الخديو عباس الذى كان طريح الفراش بعد اطلاق الرصاص عليه ،

ولكن الخديو الح عليه فى العودة لأن الحرب سوف تطول خاصة وقد كانت الأخبار الأكيدة تتواتر فى ذلك الوقت عن قرب دخول تركيا الى جانب المانيا ، فاذا ما انقطعت المواصلات فسوف يكون من العسير عليه بأسرته الكبيرة أن يبقى دون مشقة ، وهكذا عاد على ظهر آخر سفينة متجهة من تركيا الى مصر ٠

ولكنه لم يكد يصل ثم يعزل الخديو ، حتى أخذ عدد زوار « الكرمة » يتناقص يوما بعد يوم ، بل صار الأصحاب يخشون لقاءه وفتشت « الكرمة » من قبل سلطات الاحتلال وأحس ان أياما عسيرة تنتظره خاصة بعد ان قال قصيدته فى السلطان الجديد ، مشيرا الى أن الحوادث لم تنته وان الرواية لها بقية ، فتولية حسين مؤقتة ، ومن يدرى ماذا تلد الليالى ؟ ومن أجل ذلك قدم استقالته من القصر ، وقبع فى بيته بالمطرية حتى استدعى للمحاكمة.

وتوالت على ذهنه مشاهد متتابعة ترى من أين يؤخذ ؟ ان له شعرا كثيرا فى ضروب الوطنية منذ أكثر من خمسة عشر عاما ٠ انه يذكر قصيدته التى نشرها المؤيد فى ١٨٩٩/٢/١٨ بمناسبة الاحتفال باقامة تمثال « دلسبس » ، يوم اقامته شركة القناة الأجنبية ، ثم دعت الخديو الى الاحتفال ، فقال أبياته التى تصور مصر طاهية للدنيا ، ولكنها لا تنال شيئا من الطعام الذى طهته :

كم مثلت بمجاليها ورونقها	**جد الشعوب واقدام الحكومات**
والقوم فى مصر ماطافوا بملعبها	**الا كما شهد أثغر الروايات**
حتى جرى الماء فى اثنائها ذهبا	**يسقى ممالك لا تروى ودولات**
فكل مائدة بالخلق حافلة	**ومصر من خلفهم طاهى الوليمات**

وهو يبغض الاحتلال ويحتقر من يتملقه ويتقبله مهما كان مركزه ، تعود به الذاكرة الى شهر مايو عام ١٩٠٤ ، حين أقامت

جمعية العروة الوثقى بالأسكندرية احتفالا لوضع الحجر الاساسى لمدرسة محمد على الصناعية ورأس الخديو هذا الاحتفال واعتذر لورد كرومر . والقى « رياض باشا » كلمة امتدح فيها الاحتلال فقوبلت بالسخط ، وحمل عليها مصطفى كامل ، واتهم رياضا بالتملق على حساب الوطن من أجل الوزارة (١) .

ويومها قال قصيدة نارية ، صب فيها جام غضبه على رياض واتهمه بالذلة والجحود وبلادة الحس لأن الوطنية كانت تقتضيه أن يهيب بالشباب لينهضوا خفافا الى مقاومة الاحتلال :

عمرت القوم اطراء وحمـــدا	**وهم غمروك بالنعم الجسـام**
رأوا بالأمس انفك فى الثريا	**فكيف اليوم أصبح فى الرغام**
لهجت بالاحتلال وما أتـــاه	**وجرحك منه لو أحسست دام**
فهلا قلت للشبان قــولا	**يليق بحافل الماضى الهمـام**
يبث تجارب الأيـام فيهـم	**ويدعـو الرابضـين الى القيـام**
أراعك مقتل من مصر بـاق	**فقمت تزيد سهمـا فى السهام**
فياتلك الليـالى لا تعـودى	**ويا زمن النفاق بلا سـلام**
أحبك مصر من أعماق قلبى	**وحبك فى صميم القلب نامى**
وانظر جنة جمعت ذئـابا	**فيصرفنى الاباء عن الزحـام**
وهبتك غير هيـاب يراعـا	**أشد على العدو من الحسـام**

واذا كان الاغضاء ممكنا عن هذا .. فهل يمكن أن يكون يوم هاجم كرومر بقصيدته اللامية التى رد فيها على ما اتهم به المصريين من العقوق وما أنذرهم به من دوام الاحتلال البريطانى وما وصف به حركتهم الوطنية بأنها حركة مفتعلة كاذبة ، وما رمى به مصر والمصريين من تفكير غريب غامض ، كل ذلك فى غطرسة شديدة ؟ ان كرومر قبل ذلك كان قد نصح الخديو بالابتعاد عن على يوسف

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ قسم ٢ ص ١٢٠

ومصطفى كامل وأحمد شوقى (١) ، لقد كان ممثل الاحتلال يخشى من خطب مصطفى كامل النارية ومن شعره البعيد الاثر ، ويدرك ان الصلة بين الزعيم وبين الشاعر لا يمكن أن يقطعها الا الموت ، فهى قديمة منذ أيام طلب العلم بفرنسا وتكوين الجمعية الوطنية هناك ، ومن أجل ذلك اهدى مصطفى كامل مسرحيته الى عمه « على شوقى » والد صديقه ، والشاعر والزعيم كلاهما متعصب لمبادىء الحزب الوطنى بل أكمل كل منهما شعار الحزب ، فعندما قال مصطفى كامل « لا حياة مع اليأس » اكمل له الشاعر ولا يأس مع الحياة » . وعندما انقطعت الصلة بين الخديو وبين مصطفى كامل لم تنقطع بينه وبين صديقه الشاعر . واذا كان بعض الكتاب يتهمه بأنه تأخر كثيرا فى رثاءصديقه حين مات ، فانه فى الواقع قد بدأ نظمه فى نفس اليوم الذى ودع فيه مصطفى كامل الحياة (٢) ، ولكنه اتمها بعد أيام ونشرها بعد وفاة مصطفى باثنى عشر يوما (٣) ، حين بدأ يزول أثر الصدمة التى جمدت القلم فى يده والدمعة فى عينه ولكنه حقيقة لم يرث زعيما وطنيا وانما رثى صديقا .

وهو لا يمكن أن يتنكر لرجال الحزب الوطنى أو لمبادئه مهما عصفت العواصف فعندما هاجمه محمد فريد عقب الجفوة العابرة التى وقعت بينهما بعث اليه بخطاب نارى يرد به هجوم « اللواء » فى كل ما ذكرته الجريدة ، انه خطاب نارى حقا ، قال فيه يومئذ :

عزيزى محمد بك فريد

أراك أيها الرئيس الكريم قد خفى عليك مكان وطنيتى ، فهل تأذن لى أن أدلك عليه ، ولا فخر ، فقد أحرجتنى احراجا ، وأخرجتنى

---

(١) مصطفى كامل للرافعى ص ١٧٨/١٧٥ .

(٢) أبولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٦٥

(٣) اللواء ١٩٠٨/٢/٢٣

من خلقى اخراجا ، فاذا زهوت واستكبرت مرة فى العمر ، فأنت كريم والكريم يغفر ٠ وطنيتى أيها الرئيس هى فى فؤاد ولدك الصغير ، فاذا انقلب اليك من المدرسة فادعه يتل عليك من آياتها ما يخفق له فؤادك ، وتهتز له جوانحك اهتزازا ، لأن فريقا يهزون الرضيع فى مهده ، وفريقا آخر يوحون الوطنية الى الناشىء فى درسه ، أولئك هم المفلحون ٠

وطنيتى تطيف بكل حجر ألقى أساسا للعلم فى هذا القطر ، من الجامعة الى النادى الى أمثالهما من مصادر الحياة الحقيقية للأمم والشعوب ، يعرف ذلك ويذكره المؤسسون ٠ وطنيتى هتف بها البدو وتغنى بها الحضر ، وجاوزت الاعاجم من ترك وفرس ، فهى معلقة على جدران قصورهم ودورهم ، يقرأها هنالك القارئون ٠

وطنيتى فى الاهرام ، كان قلمى فى قمته وكانت هممى فى خدمته وكان صاحبه بشاره تقلا يحبنى كما يحب واحده جبرائيل تقلا ، وليس وراء الحب غاية فى الاحترام ٠ وطنيتى فى المؤيد مدرسة الوطنيين الاولى ٠ وطنيتى فى اللواء الذى كان صاحبه الوفى الكريم يتلقى الكلمة منى كما يتلقى سنة تقوم لجريدته عرفانا بالفضل ، والفضل يتذكره الخيرون ٠

وطنيتى مخبأة فى مقبرة سلفك العظيم مصطفى كامل ، فطف بها وناجه ، يخرج اليك من جانب القبر صدى الصدق ، صدق للحق ، صدى الحياة التى لم يتغلب عليها الموت ولا تمكن منها البلى صدى الشباب الذى نصفه فى الجنة ونصفه لا يزال فى هذه الدنيا يملؤها ويسرى فيها ـ هذا الصدى يقول : شوقى هو همزة اللواء طالما تباهى به وافتخر واعتز به وانتصر وهو أصدق من نظم فيه ونثر فى وقت عز فيه الصادقون ٠

وطنيتى فى الشوقيات قليلهـا الذى ظهر وكثيرها المستتر ، وفى «عذراء الهند» و «دل ويتمان» و «لادياس» و «بنتـاءور» ولو اطلعت على واحد من هذه الآثار التى تقتنيها ربات الجمال ، ويفهمها الرجال والاطفال ، لعلمت ــ كما علم كثير من العقلاء قبلك ــ اننى كما وصفنى المرحوم مصطفى كامل ذلك الغدير الصافى فى لفائف الغاب يسقى الارض ولا يبصره الناظرون(١) ٠

والحقيقة ان هناك هفوة ، كلما ذكرها أحس بالندم وبالضيق يستبدان به ، لقد كانت تلك السقطة مع أحمد عرابى عندما عاد من منفاه عام ١٩٠١ وكان أشد الناس قدحا له مصطفى كامل وجريدة اللواء والحزب الوطنى وقد جاراهم فكتب ثلاث قصائد هاجم فيها عرابى ولكن ألم يكن لعرابى روحه الوطنية الطموحة ؟ لذلك قرر ألا ينشر هذه القصـائد فى ديوانه عندما يطبعه ٠ وقد تهيأت له فرصة الاعتذار عندما كان قادما من الاسكندرية الى القاهرة ، فقد وجد عرابى يدخل عليه «الصالون» فى القطار راكبا من طنطا ولكن عرابى لم يكد يراه حتى تجهم له ثم ترك المكان خارجا ٠

ولكن ترى ماذا يأخذون عليه ؟ انه متعاطف مع الحركة العربية، فليست للمسلمين ناقة ولا جمل فى دخول الحرب ، وقد ذكر ذلك كله فى قصيدته التى نشرها المؤيد فى ١٨ نوفمبر ، حيث قال :

نزل البلاء وحل طوفان دم
بالمسلمين سماؤه لا تقلع

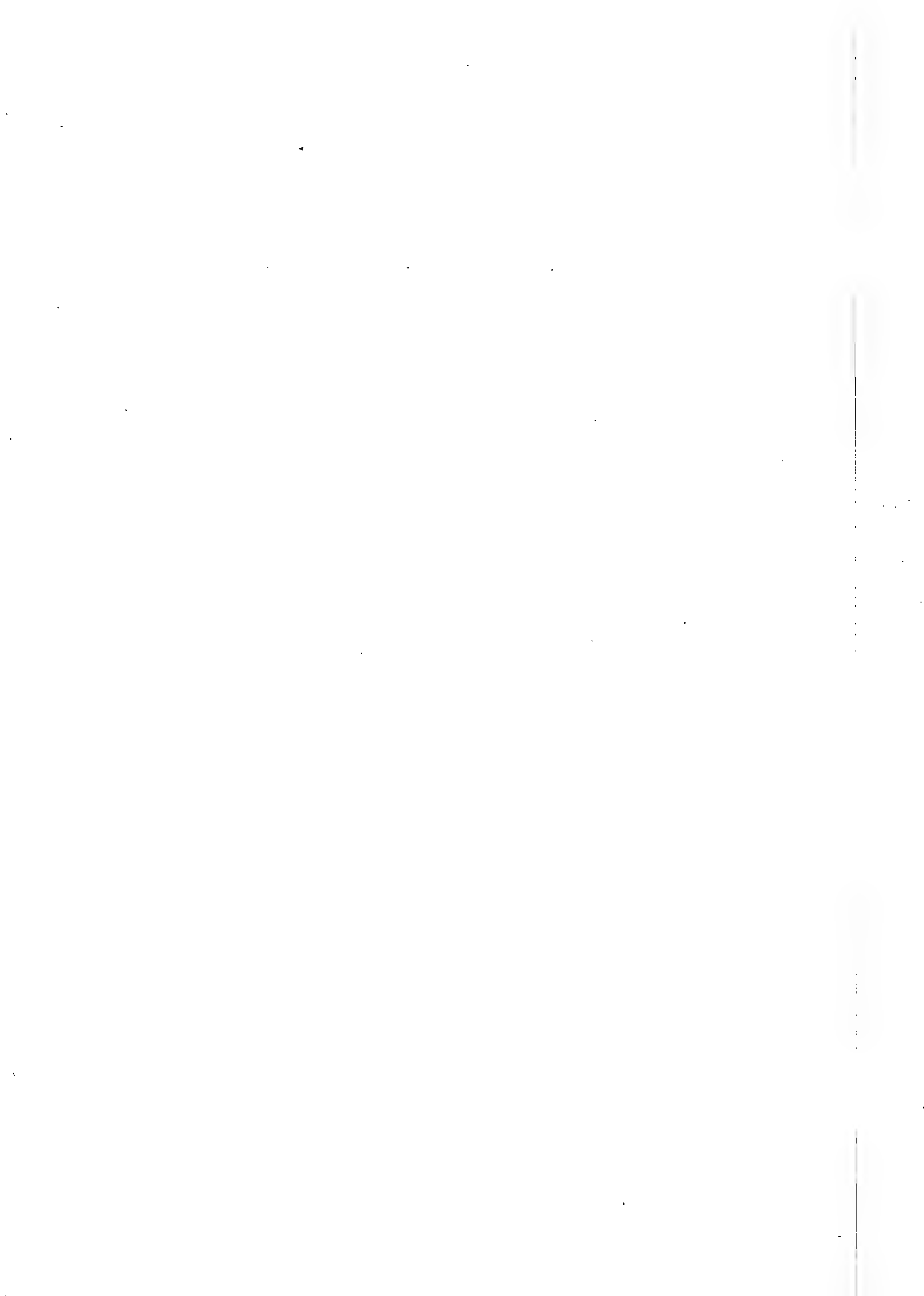
ماذا اندفاع المسلمين بموقف
الغالب المنصور فيه مضعضع

ولـكن ذلك ليس موضع مؤاخذة ، أغلب الظن انهم يأخذون

(١) شوقى وحافظ لطاهر الطناحى ص ٣١ ٠

عليه شيئا من قصيدته فى السلطان الجديد «حسين كامل» ، ولعله بيته الذى يذكر فيه «ان الرواية لم تتم فصولا» • فقد كثر اللغط حوله وحول ما يحمل من مغامز سياسية ، هذا علاوة على ان القصيدة برمتها يشـــيع فيهـــا الحزن مما لا يتناسب مع موقف التهنئة • والعلاقات نفسها بينه وبين «حسين كامل» ليست على ما يرام ، لانه سبق ان عرض به فى قصيدته التى قالها فى « كرومر » فقد كان «حسين كامل» رئيسا لحفل الوداع الذى أقيم لكرومر ، وسمع باذنيه غطرسة كرومر وهجومه • فقال فيه يومئذ «شهد الحسين عليه لعن اصوله» • مهما يكن من أمر ، فان الغد قريب ، وسوف تتكشف الامور فيه •

ولم تطل حيرته فلم يدم التحقيق طويلا ، وكان كما قدر من قبل حول البيت السابق ، ثم افرج عنه ، فالبيت يلمح ولا يصرح ويرمز ولا يقول فى وضوح ، فماذا يستطيع المحقق أن يقول فيه ؟ على أية حال •• لقد قرر أن يبقى فى بيته بالمطرية الى حين ، والا يقول شيئا حتى ولو كان نجاة السلطان من الاغتيالات • فلا يمدح ولا يهنىء ولا يجامل ولا حتى يرثى ، ان كان هناك مجال لشىء من كل هذا ، انه اعتكاف وصمت •



الباب الثالث

الغريب

فى برشلونة

ما أكثر الأوقات التى أحس فيها بانقباض قلبه ، ولكنه اليوم شديد الانقباض أكثر من أى يوم مر به خلال الشهور الماضية الكئيبة . لقد اشتطت حكومة «حسين رشدى» فى القاء القبض على الناس والتحقيق معهم بعد القاء القنبلة على السلطان «حسين كامل» فى الاسكندرية . انه يعلم ان سلطات الاحتلال تنتهز هذه الفرص للتخلص من كل من كانت له صلة بالخديو ، ويعلم ثورة السلطان ورغبته فى الانتقام من كل فرد يشك فيه ، ترى كيف تكون وسيلة انتقام السلطتين ؟ .. مهما توالت الاحداث فقد ضاق به الانتظار ومل هو الترقب فى كل حين . وذكر صديقه الذى رآه فى الطريق فانحرف الى الجانب الآخر من الطريق ، متجنبا اياه ، فكادت تفر من عينه الدمعة ، أهكذا بلغ به الامر أن يفر منه الاصحاب وكانوا لا يتركون له لحظة يستريح فيها ؟.. أهكذا بلغ به الهوان أن يتوقع التفتيش والاعتقال وما هو فوق ذلك فى كل حين أكل هذا من أجل قصيدته ؟ انه غير نادم على قولها ما دامت قيمة الكلمة قد بلغت هذا الحد . وانتشلته من غمرة الانفعالات طرقات عنيفة متوالية ، لقد صدق حدسه ؟ انه أمر من السلطة العسكرية بمغادرة الوطن .

ان شتى الأحاسيس تثور فى وجدانه ، أهو النفى أخيرا ؟ انه أقسى أنواع العذاب ، ثم يهدأ قليلا فيرى أن النفى سوف يخلصه على أية حال من القلق الطويل الذى عاناه ، ومن أمثال هذه الوجوه التى ضحت بالصداقة على مذبح الخوف ، ورمت النقاب دون حياء . ولكن أى البلاد يختار ؟ انه يستطيع أن يتخذ بلدا أوربيا ، ولكن حنينه

سوف يضنيه ، ان روائح الشرق لا تفوح الا من أسبانيا ، فلتكن منفاه وملجأه ٠

الخامس من أغسطس عام ١٩١٥ ، تاريخ لا ينساه ، لقد اعتاد صيف كل عام أن يرحل الى أوروبا أو تركيـا ، وأن يترك القاهرة مبتهجا برحلته ، ولكنه اليوم يركب القطار الى السويس وهو أشقى الناس ٠ انه طائر اللب زائغ البصر يستـمع الى والد زوجه وهو يحاول أن يبعث الطمأنينة الى نفسه ولكنه غائب عنه فى الحقيقة ، ليت نبوءته تصدق فلا تطول الحرب ٠ وأشد ما يعذبه أن يترك أمه المريضة بحلوان ويرحل دونها ، وهو لا يدرى ماذا تخبئه الايام ٠

كانت سفينة بضاعة صغيرة قديمة ، والمضطر يركب الصعب، فلم يكن لديه الخيار ، حمل اليهـا كتبه وأبناءه جميعا وزوجه ثم بعض خدمه ٠ وصعد اليها معه أربعة من الرعايا الالمان والنمساويين أمروا بمغادرة مصر أيضا ، وكان بالسفينة شحنة كبيرة من الثيران ذاهبة الى حفلات المصارعة فى أسبانيا ٠ وعوت الباخرة ثم انطلقت فى القناة متجهة الى بورسعيد ٠ وانتبذ الشـاعر مكانا قصيا ، ثم جلس وحيدا ، واحترم الجميع وحدته ، فلم يقطعها عليه أحد ٠

« ان للنفى لروعة ، وان للنـأى للوعة ، وقـد جرت أحكام القضاء ، بأن نعبر هذا الماء ، حين الشر مضطرم ، واليأس محتدم ، والعدو منتقم ، والخصم محتكم ، وحين الشـامت جذلان مبتسم ، يهزأ بالدمع وان لم ينسجم ، نفـانا حكام عجـم ، أعوان العدوان والظلم ، خلفنـاهم يفرحون بذهب اللجـم ، ويمرحون فى أرسان يسمونها الحكم ٠ ضربونا بسيف لم يطبعوه ، ولم يملكوا أن يرفعوه أو يضعوه ، سامحهم فى حقوق الافراد ، وسامحوه فى حقوق البلاد، وما ذنب السيف اذا لم يستح الجلاد ٠٠»(١)

---

(١) أسواق الذهب ص ٢٩ ٠

وتتوالى على مخيلته مواكب التاريخ الحافلة تعبر منطقة القناة أو تقيم فى مصر منذ يوسف عليه السلام الى عمرو بن العاص ومن صلاح الدين الى الاحتلال البريطـانى ، ما أكثر عبر التاريخ ، وما أعجب ما آل اليه أمر مصر ! لو تدبر المصريون تاريخهم المجيد لثاروا مرة ومرات • وطوى أوراقه بعد أن رأى ولديه يقبـــلان ، فأضاف جملته الاخيرة « ثم انظروا اليوم ، تريا القناة فى يد القوم ، ان أمنوا ركزوها ، وان خافوا هزوها » وكانت الباخرة قد عبرت بورسعيد وانطلقت الى البحر المتوسط ، ثم غابت الارض من كل جانب •

لحظات مرت •• نعم لحظات •• فقد كان الوقت عصرا ، ثم هبت عاصفة هوجاء ، وأصبحت السفينة ارجوحة فى أيدى الامواج• وأصاب الركاب جميعا دوار البحر ، ولكن الطبيب النمساوى الذى كان بالسفينة حاول بكل جهده أن يخفف من وطأته • وتعالت تراتيل الرهبان ، واستبد الرعب بالجميع • وأقبل الليل فلم يغمض لواحد جفن ، فضربات الموج على جانبى السفينة ، وزمجرة الريح، وتراقص السفينة بمن فيها ، منع النوم عن العيون، وأصاب الجميع بوسواس كئيب ، وتوهموا النهاية المفجعة ، والموت من حولهم يسبح • وعندما طلع النهار كئيبا غاضبا ، وازداد هدير الامواج وارتفاعها كالجبال ، رأى القبطان ازاء خطورة الامر ، أن يخفف من عبء السفينة فيلقى فى البحر كل الحمولة من الثيران • وتوسل اليه الشاعر الرقيق أن يتريث حينا ، عل الغمة تنقشع ، فلم يعبأ بتوسلاته ، وبدأ يلقيها جماعة اثر أخرى ، فتحاول العـــوم حتى اذا كلت أسلمت نفسها للقضـــاء وهى تخور خوارا مؤثرا • وبعد يومين عاصفين ، هدأت غضبة البحر ، فهدأت الامواج ، وسكنت الريح ، وأشرقت السماء ، وسأل الشـــاعر ابنه : أدعاء الرهبـــان يا أبى هو الذى أنقذنا من

الغرق ؟ فأجاب : بل دعوات جدتك الطيبة يابني وبركاتها (١) •
ومن بعيد تراءت طيور الماء البيضاء محومة في الجو ، وشقت السفينة طريقها الى ميناء برشلونة •

أقام الشاعر عدة أسابيع في فندق بقلب المدينة ، ولكن نفقاته كانت باهظة وعلى الأخص بالنسبة لأسرة كبيرة مثل أسرته ، كما أن ما يرسل اليه من مال كان محددا بأمر السلطة العسكرية ، حتى لا يستطيع على حد زعمها ، أن يساعد به أعداء بريطانيا لذلك لم يلبث أن استأجر منزلا في ضاحية من ضواحي المدينة تدعى « فلفدريرا » وهي مرتفعة كثيرا عن قلب المدينة ، ومن هنا كان باستطاعته أن يشهد بسهولة ميناء المدينة والبحر المتوسط •

كان في « برشلونة » مصري واحد يعرفه شوقي من مصر ، وهو غريب الأطوار ، شاذ التصرفات ، يعيش سنة كاملة في تقتير ، ثم لا يلبث أن ينفق ما أدخره في لحظة واحدة • وكان هناك تاجر سوري من المهجر ، جمع ثروته الكبيرة وأراد العودة الى وطنه فاحتجزته الحرب ، وأخذ يقضي وقته في المضاربات المالية ، حتى فقد ثروته كلها وقرر العودة الى المهجر ثانية ليبدأ من جديد ، ولعل الشخصية الوحيدة التي ارتاح اليها هي شخصية الطبيب النمساوي • وهو رجل بوهيمي لا يحفل بالمظاهر ولا يتقيد بموعد كان لا يمكث في عيادته الا المدة الكافية لجمع نفقات سهرته ، ففلسفته قائمة على اقتناص الفرص ، لأن الحياة قصيرة • وهكذا وجد شوقي نفسه وحيدا غريبا •

ولأول مرة يمنح نفسه كلها لأسرته وأبنائه ، وبدأ يتذوق طعم الحياة الأسرية ، بعد أن كان مستوفزا كالطير ، نافرا أبدا •

---

(١) أبي شوقي ص ٣٤ •

بدأ يعطى أبناءه دروسا فى اللغة العربية فارتبط بالبيت وبالأبناء ، بعد أن كان يكلف من يقضى لأبنائه حاجاتهم ، فكيف اتسع صدره ووجد الصبر الذى يدفعه الى قضاء الساعات فى تلك الدروس دون ملل ؟ انه النفى والغربة والوحدة . ثم شرع فى تعلم اللغة الأسبانية ، وقد تعلمها فعلا ، ولكن نطقه لها لم يكن سليما ، لذلك كان يثير ضحك أبنائه كلما أخطأ فى النطق أمامهم ، مما يدفعه الى الغضب والى الصياح بهم لزجرهم . والواقع انه لم يكن متحمسا لتعلم الأسبانية ، فكثيرا ما كان يمسك كتب النحو الأسبانى ، بينما هو سابح فى أودية الخيال مع ربة الشعر ، فيغطى غلافه باشعاره . ولكن لا النظم ولا الدروس يمكن أن تستغرق أكثر من وقته ، فالقراء وحدها هى القادرة على التهام أوقات الفراغ ، وهكذا عكف على قراءة كتب الادب العربى التى كان قد حملها معه ، واستوعب منها ما لم يكن قد استوعبه من قبل ، حتى أحس انه ليس فى الادب العربى كتاب لكبار الادباء لم يقرأه قراءة واعية(١) .

ثم أرسل الى صديقه أحمد زكى بمصر كى يبعث اليه بمجموعة أخرى من الكتب يود قراءتها ولكن السلطات فى مصر لم توافق ، وأعادت الكتب الى مرسلها مرة ثانية .

ولأول مرة يصطحب أسرته فى نزهاته ، فتخرج معه زوجه وابنته وولداه ، وهو أمر لم يكن متيسرا فى مصر بسبب الحجاب ، الذى لم يقض عليه الا فى خلال الثورة المصرية . فيقومون برحلات فى ضواحى «برشلونة» الفاتنة ، التى جمعت بين الجبل وبين البحر . كانوا يؤثرون النزهة فى الاودية والجبال خاصة فى فصل الربيع ، فللغابات رائحة الجنة ، مصدرها أشجار الصنوبر ، ويصعدون

---

(١) شوقى وحافظ للطناحى ص ٨٦ .

أحيانا الى قمم الجبال حيث يصبح السحاب فى متناول الايدى ، ثم حيث يتقاذف الصغار قطع الثلج فىحماسة ومرح • وكثيرا مايتجهون الى الغابات وهى مناظر غير مألوفة لديهم ، فهناك تتكاثف الاشجار وتتضخم ويحس المرء بوحشية الطبيعة البدائية ، ولكن هذه البدائية نفسها مبعث راحة لانسان المدينة الذى ضاق بالآلة •

لقد تحمل أيامه فى المنفى ، ومضت لياليه هادئة حينا ، أرقة تجتر أحزانها حينا آخر ، حقا ان للنفى لروعة ، وأعز شىء أضناه فراقه بعـــد الوطن هو أمه المريضة • لقد كان يحسب ان الحرب شهور قصيرة الامد ، بل كان يمنى نفسه بأحلام العودة ، وهاهى ذى الايام تمضى والسنوات تمر وتتبدد الاحلام ، ويعانى انقلابا نفسيا، دفعه الى رفض دعوة «عباس حلمى» للحاق به فى «النمسا» على ظهر غواصة ، فهو لم يعد عند نفسه شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية • ومما يزيده احساسا بالشقاء ، انقطاع المال عن الوصول اليه ، على اثر ما نشرته احدى الصحف الانجليزية التى تصدر فى لندن حول شاعر عربى كبير يقيم فى أسبانيا يحرض عرب مراكش على محاربة الحلفاء (١) فمن أين أتت الصحيفة بهذا الخبر الذى أثار سلطات الاحتلال وأقعدها ، فقررت الانتقـــام منه ؟ وماذا يصنع ان طالت الحرب وطال انقطاع المال عنه ؟ ستة أشهر كاملة لم يصله شىء ، حتى باع حلى زوجه وابنته ، وأوشك ما معه من مال قليل على النفاد، هل يتضور أبناؤه جوعا فى المنفى ؟ هل يستجدى ؟ لقد بدأ يعرف كيف ينفق بحساب وتلك ميزة كسبها من المنفى ، حتى الخمر التى كان لا يصبر على فراقها ، كف عن شربها ، فلعل الله أراد به خيرا، ولكن ماذا بعد ذلك ؟ ان حيرته تطول وليس هناك من حلول •

---

(١) ابى شوقى ص ٥٢ •

وسط هذا الجو الخانق الذى عاشه فى هـذه الفترة ، رأى يوما وهو يركب احدى السيارات العامة رجلا قبيحا ضخما عجوزا، عليه آثار النعمة والثراء يتحلى بسلسلة ذهبية ، يجلس أمامه ، وما لبث هـذا الرجل ان غط فى النـوم ، وجلس يتأمله ويعجب للاقدار التى منحت مثل هذا المسخ العجوز كل هذه النعمة البادية، بينما هو وأبناؤه غرباء يكادون أن يتضـوروا جوعا ، مفارقة من مفارقات الاقدار أوحت بها المقارنة ، وأوحت بها حالته النفسية ، بل هناك آلاف الشباب فى مقتبل العمر يحاولون بناء حياتهم ، وهم أشد بؤسا ، وأكثر فقرا ، ضنت عليهم الدنيا حتى بالكفاف • وفى هذه اللحظة صعد الى السيارة شاب نحيـل وسيم الطلعة ، أبرقت عينه حين رأى السلسـلة الذهبية ، ومد يده ولـكنه رأى شوقى يراقبه ، فأشار اليه مستأذنا ، فأومأ اليه بالموافقة فنشلها ونزل من السيارة • ان المجتمع هو المسئول عن كل انحراف ، ترى أيكون المجتمع مسئولا عنه أيضـا ، ان ساءت حاله ، أكثر مما هو فيه ؟ وأجفل من مجرد التصور • وتذكر ان السفير البريطانى فى مدريد يستطيع أن يتدخل فى الامر ، فهو شاعر ، ويذكر جيدا أنه التقى به فى «برشلونة» من قبل ، ولا شك انه لن يرفض مطلبه •

الحنين

يا ساكنى مصر انا لانزال على
عهد الوفاء وان غبنا مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم
شيئا نبل به أحشاء صادينا

كل المناهل بعد النيل آسنة
ما أبعد النيل الا عن أمانينا

غناء حزين ونفس حزينة ، وهل يملك الا الحزن، لقد استحال ذوبا من الحنين الخالص ، وأضناه الشوق ، وفاحت أبياته بزفراته الحارة • لقد أرسل هذه الابيات الى صديقه الشاعر حافظ ابراهيم «شاعر النيل» ، والنيل يذكره بوطنه الذى افتقده ويذكره بصديقه وبأحبابه وبأمه وبكل مكان كانت له فيه ذكريات • وأتته أبيات حافظ بلسما لجراحه :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله
صاد ويسقى ربى مصر ويسقينا

والله ما طاب للاصحاب مورده
ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا

لم تنأ عنه وان فارقت شاطئه
وقد نأينا وان كنا مقيمينا

نعم ان بلبل مصر صاد أحرقه الظمأ ، يتلهف على قطرات ماء النيل فيدفع عنها ، بينما الأجنبى يعب منه مرة ومرة ومرات •

ولكنهم يحسون فى مصر بظمئه وهذا ما يسكت أنين جراحه الى حين. غير أن القلق يعاوده ثانية فيبعث الى اسماعيل صبرى « شيخ الشعراء » بأبيات انداحت فوقها عبراته ، ويجيبه صبرى ولكنه لا يهدأ • ومن أين له الهدوء ، وهو فى كل يوم يشاهد السفن فى الميناء ، طويل أنينها ، طول لوعته ، فلم يعد قادرا على الانفعال الهادر ، وانما أصبح صوته أشبه بالناى رمز الحزن الابدى ، والعذاب الذى لا نهاية له ، عذاب الجريح وأحزان الغريب ، وأنات المشوق ، وتمتمت شفتاه تعبر عن كل هذا :

وسلا مصر هل سلا القلب عنها
أو أسا جرحه الزمان المؤسى

مستطار اذا البواخر رنت
أول الليل أو عوت بعد جرس

يا ابنة اليم ما أبوك بخيل
ماله مولعا بمنع وحبس

أحرام على بلابله الدو
ح حلال للطير من كل جنس

نفسى مرجل وقلبى شراع
بهما فى الدموع سيرى وأرسى

وطنى لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى اليه فى الخلد نفسى

شهد الله لم يغب عن جفونى
شخصه ساعة ولم يخل حسى

كل شىء يثير أشجانه ، وكل شىء يذكره بوطنه وبغربته • حتى نونية « ابن زيدون » ، يجد فيها صورة من آلامه ، فيفيض أساه ، فالشاعر الاندلسى كان بعيدا عن قرطبة مسقط رأسه وملعب

صباه ، وقد خلف فيها صاحبته الاميرة الشاعرة الظريفة ولادة بنت المستكفى ، وترك هناك مجده السياسى العريض وقلبه الجريح ، وهو بعيد عن وطنه مثل ابن زيدون ، حيث خلف هناك أمه وأحبابه. «يانائح الطلح أشباه عوادينا» ، نعم أيها الطائر الجريح كلانا عبثت به الايام . انها صورة قديمة كان يقرأها فى شعر جرير وفى شعر أبى فراس الحمدانى ، وما كان يحسب انها ستصبح جديدة وانه سيقف داخل نفس الاطار . لقد ذهب خياله الى وادى الطلح باشبيلية وهو مازال بعد فى برشلونة لم يبرحها ، انه على أية حال يفكر فى أسبانيا أقل مما يفكر فى مصر . وما أكثر التفاتاته الى مصر والى البلاد الاسلامية . ان أيام المسلمين فى تلك الديار أصبحت حلما من الاحلام ومرتعا للذكرى ، وآثارا تبعث فى النفس الاسى ، واذا ما امتد ببصره الى الشرق ، رأى ما يزيده احساسا بهذا الاسى. أفلا يستطيع أن يخلد ذكر البطولة الاسلامية ، ويعرض على أفئدة المسلمين صورا من مجد الاجداد ، عل فيها لهم العزاء عن الحاضر ، والامل فى المستقبل ؟ .. انه فى الواقع يتعزى عن حاضره ، وينظر بعين الأمل الى غده . وهكذا كانت ارجوزة « رقم الحلل فى نظم الدول » التى كتبها الشاعر لسان الدين بن الخطيب ، هادية له فى مسيره خلال الارجوزة الطويلة التى نظمها ، وخرجت فى أكثر من مائة صفحة وأسماها « دول العرب وعظماء الاسلام » .

ومرت ثلاث سنوات كأنها الدهر ، وهو فى المنفى ، ثم أعلنت الهدنة بين الدول المتحاربة فى نوفمبر عام ١٩١٨ . فأى سعادة غامرة هذه التى ازاحت عن صدره كل الأشجان وضمدت كل الجراح . لقد غفر للدنيا كل ذنوبها . انه شديد اللهفة الى العودة .. لا يدرى أى هوى الأمين يدفعه ، الوطن والوالدة . ولكن السلطات فى مصر لم تسمح له بعد بالعودة ، وان كانت القيود المالية قد ازيلت تماما . وانطفأت البسمة على شفتيه ، ان أمه المريضة التى عاشت

على أمل انتهاء الحرب ليعود اليها ولدها ، لم تقو على احتمال فرحتها الكبرى ، فحمت وماتت قبل ان تملأ عينيها برؤياه · وهزته الصدمة هزا عنيفا ، ثم أجهش بالبكاء حتى جفت مآقيه · وأحس بالشبه الكبير بين حاله وحال المتنبى يوم خلف فى الكوفة جدة عجوزا يئست من حفيدها لطول غيبته فلما هم بالعودة كان فرحها أكبر من أن تحتمله أعصابها الخوارة فحمت وماتت ·

ماله وللبقاء فى « برشلونة » الآن ؟ ان التجوال خير له من الانتظار والترقب على أمل السماح له بالعودة · فليحزم حقائبه ثم يرحل الى «جزر البليار» فهى على بعد ليلة من مدينته · أما روادها فأكثرهم من الفنانين لمناظرها الطبيعية الساحرة وجوها الصحو · لقد كانت تلك الجزيرة مسرحا لحب الكاتبة الفرنسية «جورج صاند» والموسيقار البولونى «شوبان» · وهكذا ذهب الى الجزيرة مصطحبا صديقه الطبيب النمساوى فكانت فترة استجمام مسحت دموعه ووارت أحزانه ·

وانطلق الى «مدريد» العاصمة وهى أكثر المدن التى شاهدها ارستقراطية فبينما كانت برشلونة مجدة كلها مصانع ومعامل كانت مدريد تحيا عالة على سائر المدن كأميرة من أميرات ألف ليلة وليلة· وفى «مدريد» متاحف ثمينة ، أهمها « البرادو » الذى يضم صورا زيتية رائعة للمصورين الاسبان المشهورين وللمصورين الهولنديين النابغين · وهناك قضى مع أبنائه وقتا ممتعا ، رأوا فيه أحفل متاحف أوروبا بلا نزاع · ولكن أروع ما شاهدوه فى « مدريد » هو قصر الاسكوريال ، الذى شيده فيليب الثانى واستغرق بناؤه أعواما طويلة · وبه سرداب يضم رفات ملوك أسبانيا ، وقد وضعت فى توابيت من المرمر ، وللاسكوريال مكتبة عظيمة ، تحوى بعض

المخطوطات العربيـــة ، التي أثارت ذكرياتهم وأثرت فى نفوســـهم وعجلت برحيلهم الى أرض الاندلس(١) ٠

كان السفر سريعا ، حتى ان قطار الليل لم يسمح للمسافرين برؤية المدن التى يمرون بها ، فكان مروره خاطفا بطليطلة وليس فى ذاكرته منها غير الجسر البالى القائم على نهر «تاجه» المحيط بالمدينة كالسوار ، مع ان فيها من الآثار العربية بابا قديما من أبواب المدينة يسمونه (باب الشمس) ، والى جانبه أثر عربى آخر ، لايزال يناضل الدمار ويستعصى على الفنـــاء ، وهو مسجد صغير يحمل الى اليوم اسمه العربى يكتب El-Mezquita ، وعلى جوانب من أقواسه تلك الكلمات التى تمثل شعار أجدادنا «لا غالب الا الله» بلونها الاحمر القاتم كما تركوها ٠ وطليطلة اليوم مدينة صغيرة وأهاليها لايزيدون على ثلاثين ألفا(٢) ٠ ولو أن الشاعر طاف بأحياء المدينة القديمة ، لمرت أمام عينيه مواكب التاريخ ، تحدوها ذكريات المجد العربى ٠ فقد كانت أيام الحكم العربى تتسع لربع مليون من المسلمين « بها بساتين محدقة ، وانهار مخترقة ، ورياض وجنان وفواكه حسان ، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وضياع بديعةوقلاع منيعة» كما يروى المقرى فى نفخ الطيب ٠ غير أن قطار الليل لم يكن يهتم بشىء من ذلك ، فأمامه رحلة طويلة تمتد اربعمائة وخمسين كيلومترا ، مسافة ما بين مدريد وقرطبة ، يطوى فيها السهول الخضر والجبال الصلدة قبل أن يصل الى عاصمة الامويين ٠

وعنـــدما وصل الى « قرطبة » فى ربيع عام ١٩١٩ ، وضع أقدامه لاول مرة على أرض الاندلس ٠ وكان يرسم لها فى مخيلته صورة زاهية جمع خطوطها من كتاب نفح الطيب الذى حمله معه من

---

(١) ابى شوقى ٥٦ ٠

(٢) اندلسيات شوقى ٣٢ وما بعدها ٠

مصر .. « هى أعظم مدينة بالاندلس وليس بجميع المغرب لها عندى شبيه فى كثرة أهل وسعة محل وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق»(١) ولكن يالخيبة الامل ، انها قرية كبيرة ، ضيقة الطرقات لا يتجاوز عدد سكانها خمسين ألفا . رب أهذه قرطبة التى كانت عروس الاندلس فى العهد العربى الزاخر ؟ أهذه حاضرة الاسلام التى كانت تضم مئات المساجد والمدارس ، وقد بلغ عدد سكانها اذ ذاك المليون ؟ أهذه كعبة العلماء والفقهاء التى كانوا يحجون اليها من جميع أنحاء العالم ؟ كل شىء ضاع واندثر ، ولم يبق منه سوى المسجد بروعة عمده ورشاقتها . وتفجرت أحاسيسه كلها لحنا حزينا يرثى الماضى ويهيم فى اوديته العبقرية ثم يصحو على واقعه المر فيردد :

قرية لا تعد فى الأرض كانت
تمسك الأرض أن تميد وترسى

ركب الدهر خاطرى فى ثراها
فأتى ذلك الحمي بعد حدس

سنة من كرى وطيف أمان
وصحا القلب من ضلال وهجس

واذا الدار ما بها من أنيس
واذا القوم ما لهم من محس

ثم يطوف فى أرجاء المسجد حتى يبلغ المحراب وهناك يبحث عن منبر المسجد فلا يجده ، لقد اختفى منذ العصور الوسطى ، ولكنه يستطيع أن يجده فى كتب التاريخ وان يصوره فى شعره ، ويبحث عن مصحف عثمان فلا يجده أيضا ، لأن الموحدين حملوه معهم الى

---

(١) نفح الطيب جـ ٢ ص ٨٠ .

مراكش منذ القرن السادس • وهذه هى المرة الاولى التى تستطيع فيها الاندلس زحزحة صورة مصر قليلا عن خاطره ، وأن تبرز على المسرح • أتراه منعطفا جديدا عميق الدلالة فى شخصيته يؤكد بروز الفكرة العربية ؟

ولكن هل أنساه التجوال نفسه ، وهل شغل بالآثار العربية عن التفكير فى أشجانه ؟ ان كل شىء حوله يرده الى واقعه ، فالآثار العربية غريبة غربته ، نالت منها الأيام كما نالت منه ، وهكذا يرتفع من جديد أنين الناى ، حين يتذكر «عبد الرحمن الداخل» فهو شاعر مثله ، وهو غريب كثير الحنين الى المشرق ، نفس الموقف ونفس الاحاسيس ، فيهتف فى موشحة « صقر قريش » :

ناح اذ جفناى فى أسر النجوم
رسفا فى السهد والدمع طليق
أيها الصارخ من بحر الهموم
ما عسى يغنى غريق عن غريق
ان هذا السهم لى منه كلوم
كلنا نازح أيك وفريق
قلب الدنيا تجدها قسما
صرفت من أنعم أو أبؤس
وانظر الناس تجد من سلما
من سهام الدهر شجته القسى

وغادر قرطبه الى «اشبيليه» ، انها أكبر مدن الاندلس دون شك ، ومن أجمل مدنه أيضا ذات صبغة شرقية فى بيوتها وطابعها العام • وشوارعها مغطاة بالخيام كى تحول دون حرارة الشمس فى أيام الصيف • والعجب الذى يشهده السائح هناك هو فى هذين

الاثرين العربيين العجيبين الباقيين الصامدين في وجه الفناء، وأولهما القصر وثانيهما الجيرالدا (البرج الدوار) ، اذ ليس فى اشبيليه ما يثير العجب غيرهما اللهم الا المنتزه الممتد على ضفاف النهر الشهير (الوادى الـــكبير) فكثيرا ما ذهب اليه شوقى مصطحبا أسرته فى أوقات الاصيل كما اصطحبها الى حفلات مصارعة الثيران حيث تذهب سيدات اشبيليه وهن مرتديات ثيابهن الوطنية ذات الالوان الزاهية ولكنه لم يكن يميل بطبيعته الرقيقة الى مشاهدة هذه الحفلات، التى تصرع فيها الثيران بعد عذاب طويل ٠

أما الجيرالدا فهى منارة المسجد الجامع ، وقــد هدم الاسبان المسجد ، وأقاموا مكانه كاتدرائية ضـــخمة ، ولكنهم تركوا المنـــارة العظيمة قائمة بجانبها ، فهى اعجوبة فى الفن الاسلامى ، ترتفع أكثر من تسعين مترا ، وليس لها درج وانما يصعد الى رأســـها سيرا فى طريق منحدرة ملتفة وفى استطاعة الفارس أن يصــعد بفرسه الى قمتها . هذه المنارة العربية الشامخة الرأس لا تزال الى اليوم مصدر وحى والهام لكثير من أدباء الاسبان وشعرائهم ومن أعلاها تبدو المدينة لعين الناظر بلدة كبيرة نظيفة بمبانيها البيض والاحواض التى تتوسط افنية الدور لترطيب الجو ، مثل دور دمشق العربية ثـم السقوف القرميدية الحمر ، وأروع ما يسحر العين منظر « القصر » العربى ومن ورائه يمتــد مثلث أخضر هو حدائق القصر الكبرى ، ومن خلفها نهر الوادى الكبير يحف بها كالهلال ٠ وفى هذا القصر قضى شوقى فترات طويلة يطوف فى ابهائه ويرى القسم الذى أضافه الاسبان اليه فشوهوا جماله الخالص ٠ كان يبحث هناك عن الملك الشاعر « المعتمد بن عباد » وزوجه الشاعرة الجميلة « الرميكية » وابنتها «بثينة» وجدتها العبادية ، ولكنه لم يجد سوى أطيافهم، ابطال مسرحيته «أميرة الاندلس» تعبق بها أجواء القصر الخالى وتموج بها ظلال الحدائق العربية وراء القصر الحزين ٠

وكانت آخر مدينة زارها هي غرناطة التى خرج منها العرب ـ وكانت آخر معاقلهم ـ بتسليم أبى عبد الله الصغير آخر ملوك بنى الاحمر ، الى فرديناند وايزابيلا مفاتيحها ، وخلفوا فى هذه المدينة أضخم أثر عربى تزهو اليوم به الاندلس ، وتهفو اليه قلوب السياح من كل مكان فى الارض ليروا احـــدى معجزات الانسانية ومفخرة الحضارة العربية والفن الاسلامى فى أسبانيا · انه قصر الحمراء ، حصن غرناطة ودار بنى الاحمر ولا يزال الى اليوم كما تركه بناته اعجوبة وفتنه · ويقع القصر فوق آكام عالية تطل على المدينة تحيط به جنات من حدائق القصر ويشرف على هـــذه الاكام جبل « شييرا نيفادا » الذى لا تفارقه الثلوج صيفا وشتاء · وقبل أن يصل شوقى الى القصر صعد متمهلا ، ذلك الطريق المظلل بأشجـــار كثيفة لان السنين الخمسين التى بدأ ينوء بها تدفعه دفعا الى الصعود المتمهل ، ولكن ذلك أتاح له أن يتوقف عند الباب الكبير المسمى بباب العدل ليرى على قوسه تلك اليد الهائلة المنقوشة بأصابعها الخمس · انها فيما يقال رمز للعقيدة الاسلامية بأركانها الخمسة · وعندما اسلم نفسه الى أحد الادلة الاسبان المتسكعين حول الباب وسأله عن تلك اليد المنقوشة ، سمع فيضا من الاساطير · ثم اجتــاز باب العدل وسار فى طريق ضيق متعرج بين التلال حتى بلغ ساحة الآبار حيث صهاريج المياه محفورة فى الصخر الصلد لتزويد القلعة بالماء وفى آخر الســـاحة رأى قصر شارل الخامس الذى بدأه ولم يتمه فظل جدرانا قائمة ، تخطاها ليجد نفسه داخل قصر الحمراء · وهو آية فى الروعة بحجراته الرحبة ونقوشه الدقيقة وفسيفسائه الملون ، وأجملها تلك الحجرة التى كان ملوك بنى الاحمر يقابلون فيها الرسل والسفراء فهى مفروشة بالرخام مزينة بأبدع الخطوط ، ومن نوافذها يطل الناظر على حى «البيازين» من ثلاث جهات والجهة الرابعة تفضى الى قاعة البركة · ويصل الشاعر الى ســـاحة السباع ويقف أمام

الحوض المرمرى الذى تحيط به سبعة أســود توليه ظهرها والماء يتدفق من أفواهها . وينتهى تجواله ، ثم يعود الى فندق « واشنطون ايرفنـــج » حيث يقيم مع أسرته فى قلب الغـابة المحيط بالحمراء فيتوقف طويلا أمام اللوحة الزيتية الكبيرة المعلقة فى بهو الفندق التى تمثل الملك العربى أبا عبد الله آخر ملوك غرناطة وهو يسلم مفاتيح المدينة الى ملوك الاسبان . ويتمثله عندما اجهش بالبكاء وهو يغادر الاندلس فقالت له أمه عائشة التى كانت فى صحبته : « ابك الآن بكاء النساء ، الملك الذى لم تحسن المدافعة عنه دفاع الرجال » . فيتأثر تأثرا بالغا ، ثم يردد هامسا :

خرج القـــوم فى كتــائب صم عن حفاظ كموكب الدفن خرس

العودة

كان من عادة السلطان حسين كامل ان يدعو من حين الى حين بعض الشخصيات لتناول الغداء بقصر عابدين . وفى أواخر سبتمبر عام ١٩١٩ كان بين المدعوين أحمد زكى باشا . وبعد أن فرغ الجميع من تناول الطعام ، دعاهم الى تناول القهوة بالبهو الكبير، وجلس السلطان والى جواره أحمد زكى باشا ومحمود شكرى باشا . ودار الحديث فى هذه الجلسة عن النهضة العلمية والتطور فى الحركة الأدبية ورقى الصحافة والأغانى القومية تطرق الى الشاعر اسماعيل صبرى ومستواه الفنى الرفيع الذى جعله شيخ الشعراء . وهنا التفت السلطان الى أحمد زكى باشا متسائلا :

ـ كيف تترجمون فى العربية كلمة Mentalite

ـ هذه الصيغة استحدثت لمعنى خاص يقاربه فى العربية قولنا « ذهنية » و « عقلية » .

ـ أيوجد بين العرب الآن من فى قدرته ان يماشى شعراء الافرنج ، مع هذه العقلية الجديدة والذهنية الحديثة ؟

ـ ان هذه المزية تفرقت فى كثير من شعراء العصر ، ولكنها اجتمعت كلها في شاعر واحد .

ـ ومن يكون ؟

ـ انه أحمد شوقى ٠

وهنا أشار له محمود شكرى باشا فأحس انه يشجعه على المضى فى الحديث ، فاسترسل قائلا : ان شوقى ممن تزدان بهم الدول ، ولو كان فى زمن الخلفاء لتخاطفته دمشق وبغداد وقرطبه ٠ لقد أفاض على العروبة من نفثاته ومنح الشعر والادب من نفحاته ،حسنات باقية ، وآثارا خالدة ٠ وآنس من السلطان ما يشعر بالرضى فقد التزم الاطراق والصمت فتمادى فى حديثه موجها كلامه اليه هذه المرة فى صيغة تساؤل :

ـ أيصح أن تبقى مصر محرومة من بلبلها الفريد ، وان يرفرف هذا الطائر الغريد بجناحيه على قرطبة وطليطلة وعلى اشبيليه وغرناطة بعد أن خرجت منها العروبة خروج الأرواح من الأبدان ؟ ان الذى نرمقه هو أن تعيد الى القاهرة رونقها المجتمع في أثواب شوقى ٠

ووقف السلطان فوقف الحاضرون ، ثم بدأوا فى الانصراف ٠ وهنا أسرع محمود شكرى باشا مهرولا وراء أحمد زكى ، وأخذ يعنفه على اندفاعه في هذا الحديث عن شوقى فاعتذر بأن السلطان كان مصغيا اليه ، وانه تصور اشارته تشجيعا له ، ولم يخطر على باله أن يتحرج من الحديث عن بلبل مصر ، وما فعله ليس سوى نصح السلطان بما ينبغي أن يكون ٠ وكان السلطان فعلا قد اقتنع بما سمع فطلب من رئيس الوزراء أن يعمل على عودة شوقى من المنفى (١) ٠

بلغت شوقى أنباء السماح له بالعودة الى مصر ٠ فلم يكن

---

(١) ابولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٨٦/٣٨٨ ٠

هناك من هو أشد منه طربا فى ذلك اليوم . العودة .. انها حلم جميل يتحقق ، فقد آن للغريب ان يرى حماه وان يؤوب من تجواله ويلقى عصا الشريد ويحتضن الدنيا كلها ويغفر لها كل ذنوبها . انه لم يعد يستطيع الانتظار لحظة واحدة وأول سفينة تغادر أوروبا الى مصر سوف تبحر من « البندقية » فليرحل اذن « الى جنوا » بحرا ، ثم يركب القطار الى « البندقية » ومن ثم يستقل الباخرة فى طريقه الى ثغر الاسكندرية .

لا يعرف الشوق الا من يكابده ، ان حنينه الدفاق الى تقبيل ثرى مصر أعنف من حنين محب مجنون بحبيبه . ما أعذب ان يتحقق الامل بعد اليأس ، وان يرتمى الابن فى حضن أمه بعد فراق ولوعة طالت بهما الايام . وعندما اقتربت السفينة من الميناء ولاحت أنواره من بعيد وأحس بنسمات الثغر تداعبه طفرت الدموع من عينيه ، وهتف بأبيات الحنين كزفرة طويلة لا نهاية لها :

ويا وطنى لقيتك بعد يأس	**كأنى قد لقيت بك الشبابا**
ولو انى دعيت لكنت دينى	**عليه أقابل الحتم المجابا**
أدير اليك قبل البيت وجهى	**اذا فهت الشهادة والمتابا**

ووصل القاهرة نبأ عودة شوقى فاستعدت جماهير من الطلبة وغيرها للاحتفاء به انهم جماهير ثورة ١٩١٩ التى كانت قد اندلعت منذ شهور واشتركت فيها كل طوائف الشعب ، وكان للطلبة فضل المبادرة ثم انضم اليهم العمال والفلاحون والتجار والموظفون والنساء ، وهى قفزة كبرى فى تاريخ الحركة الوطنية اذا ما قورنت بأيام مصطفى كامل فقد كانت فى أيامه حركة مثقفين أساسا . أما اليوم فقيادة الثورة سياسيا فى يد الوفد ، ولكنه تردد فكانت التحركات الثورية الفعلية فى يد الطلبة والعمال وصغار التجار

والمحامين ومتوسطى الملاك فى الريف ، واستمرت تشتعل ثم تهدأ لتنفجر من جديد • واستمع شوقي فى الاسكندرية الى أناشيدهم ، أناشيد البطولة والفداء « لا سجون ومدافع رشاشة ، ولا خفنا عذاب فى جهاد باهر ، ننصاب برصاص نربط شاشه ، عالجرح ونرجع نتظاهر » ، فأحس بدماء الشباب حارة تسرى فى جسده وتخلقه خلقا جديدا •

احتشدت تلك الجماهير على أفريز المحطة فى أمسية شديدة البرودة من أمسيات الشتاء فى انتظار القطار الذى يقل شاعر مصر الكبير •• وجاء رجل ضخم يشق الطريق بعناء ، كان حافظ ابراهيم وأهاب الرجل الضخم بالناس ان تحمله حتى يستشرف على هذا الزحام ليطالع القادم • ومرت لحظات وصل بعدها القطار ، ونزل منه رجل قصير يمسك بنيقة معطفه بيده خشية البرد ، وهتفت الآلاف بحياة شوقى فى حماسة بالغة ، ثم حملوه على الأعناق ، وحياه حافظ بأبياته التى يقول فيها :

الحمد لله الذى قد رده	**من بعد غربته الى أوطانه**
فتنظروا آياته وتسمعوا	**قد قام بلبلكم على أغصانه**

ثم خرجت الصحف ترحب بمقدمه بعد طول غياب • قالت جريدة الثمرات : « أهلا بسيد الأدباء ، أهلا بأمير الشعراء ، أهلا بأحمد شوقى » •

« غبت عنا فغابت معك شمس الفضل واحتجب بدر النبل وأظلمت سماء العرفان وأصابنا الوقر فى الآذان ، بصرير أولئك المتشاعرين الذين يزجون بأنفسهم فى غمار الشعراء ، وما هم الا جنادب تتنازى من حولنا ، وضفادع تتجاوب بيننا • فأفسدوا علينا القول حتى أحمدنا الصمم ، وآثرنا العدم • فاذا رحبنا بك ،

وأفسحنا من صدورنا لاستقبالك ، وفتحنا قلوبنـا لانزالك خير منزل ، فانما نرحب فيك بشاعر مصر ، المخلد لآثارها على وجـه الدهر ، ونستقبل فيك شاعرا جاد الزمان به على لغة الكتاب الكريم، بعد أن ضن بمثله منذ عدة أجيال ٠٠ فاصدع بوحى الشعر اليك ، واشع فى النـاس آياتك البينـات ، وافض عليهم من معجزاتك الخالدات ، وجدد للعربية عهدها ، واحى الآداب بعد مواتها ، وقل نسمع شدوك ، ونقف عند حكمك » (١)

وانفعل انفعالا شديدا ، وهو يسمع ويرى هذا الفيض من المشاعر ، فأحس انه يخلق من جديد ، كما خلق هذا الشعب من جديد ، وانه يستقبل مصر الثورة ، التي أفاقت من ذهول الصدمة، فليخفض بصره اليها ، وليحتضن قضاياها ، ذلك دين فى عنقه ، فلا أمير الا الشعب ، والا هذه القلوب الشابة ، التى يتطلع اليها بعين المستقبل فيرى وجها فتيا ٠ لم يقو الزمن على ان يعبث به ٠

(١) العدد الصادر فى ١٤ مارس سنة ١٩٢١ ٠



الباب الرابع

انطلاقه جديدة

أوطان

كل شيء آخذ فى التبدل من حوله ، ولكن الانتفاضة القومية هى أشد الظواهر عمقا ووضوحا ، ان الدائرة تنداع أمام عينيه ، حتى لا يعود يرى الا الجماهير فى حركتها ونضالها • انها فى حاجة الى الصوت القوى الذي ينطق باسمها ويعبر عن قضاياها ، ويصور آمالها ، وهو صاحب هذا الصوت ، صوت النفير المدوى الغلاب •

وهكذا ألقى بالناى الحزين بعيدا • ليته شهد الثورة واشتعالها ، اذن لصورها كما لم يصورها أحد من قبل ، ولنفخ فيها من روحه الشابه ، وكلماته النارية :

يوم البطولة لو شهدت نهاره لنظمت للأجيال ما لم ينظم
غبنت حقيقته وفات جمالها باع الخيال العبقرى الملهم
سالت من الغاب الشبول غلابها لبن اللباة وهاج عرق الضيغم
يوم النضال كستك لون جمالها حرية صبغت أديمك بالدم

لقد أتاح له النفى أن يعود الى نفسه ، فتغيم رؤيا الفرد أمام ناظريه حتى تتلاشى ، انه تحول فى مفهوم البطل فالشعب هو صانع التاريخ ، هو البطل الحقيقى الخالد ، واذا كان التاريخ الماضى هو تاريخ أفراد ، فالتاريخ الحاضر تاريخ شعوب • ان احرار التفكير الذين تعالوا على مظالم المستبد وآثروا الهلاك ، واستعذبوا الموت على

الخضوع ، هم فرسان الحقيقة التى غابت عنه حينا ، ولكنه اليوم على يقين منها ٠

هذا التحول فى التفكير هو قمة الايمان الذى لم يتزعزع بالشعب بالدستور وبزوال حكم الفرد ٠ انه لن يكف منذ اليوم عن الدعـوة الى الدستور والمطالبة به حتى يبح صوته ، وأمامه الصحف التى تتسابق على نشر أناشيده ، فهو يحمل أمانة الكلمة ، ويدرك قيمتها حين نفى بسببها ، وحين قدستها الجماهير بعد عودته ٠ وتتـــوالى القصائد ، وتطلع الصحف مشيدة بشعره ، أكتوبر عام ١٩٢١ :

نطـــالب بالحق فى أمـــة جرى دمهـــا دونـــه وانتشر
ولم تفتـــخر بأساطيلهـــا ولكن بدستورهـــا تفتخر

مارس عام ١٩٢٢ :

ان سرك الملك تبنيـــه على أســس
فاســـتنهض البانيين العــلم والأدبا
وارفع له من جبـــال الحق قاعدة
ومد من سبب الشورى له ســـببا

يناير عام ١٩٢٣ :

زمان الفرد يا فرعـــون ولى ودالت دولـة المتجبـــرينا
وأصبحت الرعـاة بكل أرض على حكم الرعيـة نازلينـــــا

لقد قال عبد العزيز فهمى فى خطاب مفتوح له ، وموجه الى رئيس الوزراء يوم ١٥ ابريل عام ١٩٢٢ : « ان سيادة الامة وكونها مصدر كل سلطة ، هي أهم ما تسعى الشعوب لحمل أمرائهـــا على الاقرار به لهـــا . وهى التى تقوم الثورات وتثل العـــروش لاستنقاذها من براثن هؤلاء الأمراء .. ان السيادة آتيـة لمصر من تحت أنياب الانجليز بعد الجهود والتصميمات الكبرى التى قام بهـــا المصريون فى وجه الانجليز . ثم يأتى أناس من المصريين أنفسهم ، فيهبونها غنيمة باردة لأمراء البيت المالك . فالشعب المصرى سيد صاحب حق أصيل فى الدستور ، ومتعاقد أصيل فيه ، ومن ثم فلا يملك أحد كائنا من كان ، اصدار الدستور بدون اشتراك هذا الشعب رجالا ونساء ، كهولا وفتيانا » . (١)

غير أن الدستور وضع وسعد زغلول معتقل فى « سيشل » مع ذلك فلم يكن « فؤاد » راضيا عنه ، كان ناقما على ما أسماه انتقاصا لسلطة الملك . وكم حبك من مؤامرات ، ولكن الضغط الشعبى ، أرغمه على اقراره . وعلى الرغم من ان الشعب لم يؤخذ رأيه فيـــه بطريقة جدية ، فقد تمسك به وأصر عليه ، وأصـــبحت السراى ومحترفو السياسة من الاقطاعيين والرأسماليين من أعدى اعدائه، ولم يتأخروا عن محاولات تعطيله فى أكثر من مناسبة .

---

(١) تطور الحركة الوطنية لشهدى عطية ص ٥٥

وافتتح البرلمان وسط هذه التيارات فى ١٥ مارس عام ١٩٢٤، انه ثمرة كفاح مر طويل ، منذ الثورة العرابية ، الى انبعاث الحركة الوطنية على يد مصطفى كامل صاحب الكلمة المشهورة « أين ذلك الدستور الذى يلجم الحكومة بلجام من حديد ؟ أين مجلس النواب المصرى الذى يقف فى وجه كل طامع ؟ » (١) الى ثورة سنة ١٩١٩ :

بنيان أقوام مشوا بسلاحهم — وبنين لم يجدوا السلاح فثاروا
فيه من التل المضرج حائط — ومن المشانق والسجون جدار

فليس هناك الا الحرص الشديد عليه ، حرص الضنين ، والا التنبيه الدائم ، تنبه النواب الى رسالتهم .. وتتابع القصائد ، كأنها دقات ناقوس لا يهدأ حتى يصحو كل نائم وينتبه كل غافل ويتجمع كل شارد ويتحرك كل ساكن :

دار النيابة هيئت درجاتها — فليرق فى الدرج النوائب والذرا
الصارخون اذا أسىء الى الحمى — والزائرون اذ أغير على الشرى
لا الجاهلون العاجزون ولا الألى — يمشون فى ذهب القيود تبخترا

ان دوامة الاحداث تستغرقه تماما فلا يفيق منها أبدا ، وليته لا يفيق فهى دليل حيوية ، وعجب لنفسه كيف كان يتصور دوره ، هو دور صانع النغم وصاحب الناى ، أليس فى زئير الجموع لحن أحلى من كل الأنغام ؟

ثم أليس فى حشد الجموع من أجل الحفاظ على مكاسبها رسالة مقدسة ؟ ينبغى اذن أن تبقى العيون يقظى كل العيون ، ولكن التطاحن من أجل التسلط والسيطرة اشتغل أواره منذ

(١) اللواء ٢١ مايو سنة ١٩٠٢

سنة ١٩٢٤ وأصبح تراشقا بالتهم منذ انتخابات سنة ١٩٢٥ التى عمل زيور على تزويرها بكل جهده ورغم ذلك أسقطه الشعب وجاء الوفد وبرلمانه لمدة تسع ساعات حل بعدها البرلمان .

وها هو ذا الصراع يندلع عنيفا بين الوفد وبين الدستوريين من أجل التهافت على الحكم ، لا من أجل الصالح العام .

هل ينبغى له اذن وهو شاعر مصر ان يكون شاعر حزب من الأحزاب ؟ انه يحس بالألم يجتاحه ويتحرك لسانه بالعذاب الذى تتجرعه آلامه من جراء هذا الانقسام ، وفى ذكرى من أعز ذكرياتها، ذكرى مصطفى كامل ، الذى احترق شـابا ليضىء للناس طريق الجهاد :

الام الخلف بينـكم الامـا وهذى الضجة الكبرى علاما ؟
شببتم بينكم فى القطـر نـارا على محتله كانت سـلاما
وكانت مصر أول من أصبتـم فلم تحص الجراح ولا الكلامـا
ولينا الأمر حزبا بعد حـزب فلم نك مصلحين ولا كرامـا
شهيد الحق قم تره يتيمـا بأرض ضيعت فيها اليتامى

ويكر عليهم ثانية فى نفس العام ، ويقرأ الناس شعره ، ويزداد توزيع الصحيفة التى تنشر قصيدته ، ويهز الناس رءوسهم أسفا على هذه الفرقة ، ثم يزداد الأسف ويثور الغضب ، ويضغط الشعب بكل قـواه ، ويتحدثون فى الشـارع وفى المقهى وفى البيت وفى النادى وفى كل مكان ، ويحسون ان الالتئام خطوة مرحليـة لا بد منها لانقاذ الدستور ، ولكن الأمل فى الجيل الجـديد الذى ازداد وعيا ، وصقلته التجارب ، وينعقد المؤتمر السـياسى الذى اجتمعت فيه كلمة الأحزاب على انقـاذ الدستور فى ١٩ فبـراير سـنة ١٩٢٦ ، وتصـافح المتلاحون واتحـدت كلمتهـم ــ الى حين ــ وتوحدت غايتهم ، وتناقل المجتمعون عبارات العتاب ، ومحا

الود ضغائن الصدور ، وانفعلت الجماهير ، وانتشت بالفرحة ، وهنأ الناس بعضهم بعضا ، واستبشروا بالغد ، وسجل شاعر الشعب بشراه مرة ومرة ومرات (١).

التاقت الأحزاب بعد تصدع … وتصافت الاقلام بعد تلاح
سحبت على الأحقاد أذيال الهوى … ومشى على الضغن الوداد الماحى
الله ألف للبلاد صدورها … من كل داهية وكل صراع
انتم بنو اليوم العصيب نشأتم … فى قصف أنواء وعصف رياح
صوت الشعوب من الزئير مجمعا … فاذا تفرق كان بعض نباح

ولقد أحس مخلصا ، أنه عاشق الحرية ، حرية سياسة أكثر من التفكير فيها والدوران حولها ليله ونهاره ، وحرية اقتصادية ، تهدف الى تحرير الاقتصاد المصرى من قبضة السيطرة الاجنبية، وتشجيع الصناعات الوطنية ، وحرية ثقافية عن طريق نشر العلم على كل المستويات ، وهكذا ينبغى أن تكون عملية البناء فى كل اتجاه • انه يسمع الشباب يرددون أبياته :

العصر حر والشعوب طليقة … ما لم يجزها الجهل فى ارسانه
أين التجارة وهى مضمار الغنى … أين الصناعة وهى وجه عنانه
ملك من الأخلاق كان بناؤه … من نحت أو لكم ومن صوانه

كما يسمعهم فى كل حقل ، ووسط كل طرب مهما بلغ مداه ، يحسون بشىء من الحزن الشاحب • ولكنه الحزن المصفى للملكات والأرواح ، الحزن الدافع لا المعوق ، يحسون أن الفرحة لن تكتمل ما لم تتم الفرحة الكبرى ، انه يسمعهم يرددون بيته الذى جاب البلاد ، وانشده الزارع فى حقله ، والعامل فى مصنعه ، والتاجر فى متجره ، ورجل الشارع فى أطماره ، يلملمها ولكنه يتغنى :

والله مادون الجلاء ويومه … يوم تسميه الكنانة عيدا

---

(١) قال قصيدتين اخريين فى نفس العام ، أولاهما فى ذكرى مصطفى كامل ، والثانية فى رثائه لعبد الحميد أبى هيف .

فيحس بسعادة غامرة ، ويدرك ان هذا الشعب قد وصل الى النضج الكافى وان شخصيته قد بدأت تكتمل ، ولا سبيل الى تزييف الرؤى أمامه ، أو الحجر عليه ، أو كبح جماح انطلاقته لتجميده ، فهل أدى الرسالة ؟

لقد كان قبل النفى شاعر الخلافة الدينية ، ولكنه لم يكن شاعر الخليفة ، الم يقل له :

زهدت الذى فى راحتيك وشاقنى
جوائز عند الله مبتغيات

انه يحس برسالته احساسا قويا من ذلك العهد . ولكن الخليفة عزل والخلافة نفسها ألغيت ، وفى الاندلس كانت عظمة ما تركه العرب تنبىء عن أمجادهم القاهرة ، وتلك كانت بداية التحول ، بداية الغذاء بالروح العربية الجديدة ، فتحول شاعر العثمانية الى شاعر العروبة ، كما تحول شاعر الخلافة الدينية الى شاعر الوطنية المصرية .

كان يهاجم الحسين الثائر العربى ضد الدولة الثمانية ، ولا يرى فيه الا عاجزا يريد الخلافة لنفسه ، عاقا خرج على ظل الله فى الأرض ، أما اليوم ، فقد أدرك أن الانطلاقة العربية كانت بداية وعى جديد ، ويخطىء من يظن ان الثورة قامت على أكتاف الحسين وآله ، فالحقيقة انها كانت ثورة الشعوب العربية التابعة للدولة العثمانية وما من عربى استطاع أن يؤازرها أو يلحق بها ، الا أقدم على ذلك عن طيب خاطر ان الذين لاموا الحسين قد نظروا الى المسألة نظرة اسلامية عاطفية ، مع ان تركيا كانت ستلغى الخلافة بعد سنوات . وهكذا أصبحت القومية العربية عاطفة جامحة فى الصدور والقلوب ، واختمرت هذه الحقيقة التى كانت متوارية خلف حجاب كثيف من التيارات السياسية فتوالت الثورات فى البلاد

العربية ، ثورة ١٩١٩ فى مصر ، وثورة ١٩٢٠ فى العراق ، وثورة ١٩٢٥ فى الشام ، وربما لم تنجح هذه الثورات نجاحا مطلقا ، ولكنها أكدت قدرة العربى على مجابهة الاستعمار ٠

ويفتح ذراعيه ليحتضن القضية العربية ، فالوطن العربى جسم واحد ، وان فرق الاستعمار أشـــلاءه ، ولن تمر مناسبة دون أن يسلط الأضواء على هذه الوحدة النفسية ٠ الساسة مشغولون بالاسلاب ، ولكن الفن يستطيع أن يلعب دوره وان يقوم بدور الحادى ـ وذلك أضعف الايمان ـ فى ريادة الجماهـير وطرد اغراء النوم عن عيونهم ٠

يا نجم سوريا ولست بأول	**ماذا نمت من نير وقــاد**
أطلع على يمن بيمنك فى غد	**وتجل بعد غد على بغـــداد**
سترى الديار على اختلاف ربوعها	**نطق البعير بها وعى الحـــادى**

وتتوالى المكائد ، وتتابع المحاولات الاستعمارية الخبيثة للايقاع بين الاشقاء ٠ انها قصة الاستعمار الازلية « فرق تسد » ولكنه لن يقوى لأن وعى الشعوب قد وصل الى درجة النضج وهو يستطيع أن يريق سم الأفعى بكشفه ، وباثارة عواطف الاخوة :

فمصر الريـــاض وسودانهـــا	**عيـــون الرياض وخلجانهـــا**
تتمـــــم مصر ينابيعـــه	**كما تمم العين انسانهـــا**
وأهلوه منــــذ جرى عــذبه	**عشـيرة مصر وجيرانهـــا**
ولكن رءوس لأموالهـــم	**يحرك قرنيه شيطانهـــا**

ويتزيى بزى العصر ، ويتجه الى دفع الجموع من أجـــل استكمال أسباب القوة ، فالدعاء لا يحقق أملا ولا يجلب الحرية ، ومواقف الاحرار من حوله مصبوغة بالدماء :

بنى سورية اطرحوا الأمـانى والقوا عنكم الأحلام ألقـــوا
وقفتم بين موت أو حيـــاة فان شئتم نعيم الدهر فاشقوا
وللأوطان فى دم كل حـر يد سلفت ودين مســـتحق
ولا يبنى الممالك كالضـحايا ولا يدنى الحقـــوق ولا يحق
وللحـــرية الحمـــراء بـــاب بكل يد مضرجـــة يدق

ويعبر شعره الحدود الاقليمية المصطنعة ، وتحلق جناحاه هنا وهناك ، ويصل صوت البلبل الى كل بيت عربى ، يزغرد تارة ويبكى تارة أخرى ، انه يعيش أروع أيامه ، ويحقق أحلى أمانيه ، وهل هناك أمنية أعز من أن تغنى الجماهير العربية من المحيط الى الخليج أغانيه أو تهدر بأناشيده ، أو تردد كلما التقت فى مناسبة :

ونحن فى الشرق والفصحى بنورحم
ونحن فى الجـرح والآلام اخـوان

طير الحجال

ـ هل وصلتك يا « حافظ بك » الدعوة لحضور الحفل النسائى الذى سيقام بمسرح حديقة الأزبكية ؟

ـ طبعا ، وقد نظمت الابيات الاولى من القصيدة التى سوف القيها . وكما تعودت يا شوقى بك ، تريد ان تعرف ماذا قلت دون ان تقول انت شيئا ، على أية حال لم أعرض الا لموضوع البر :

أى ذوات الحجال عشتن للبر ودمتن قدوة للرجال
فمن علمننا المروءة والعطف على البائسين والسؤال (١)

ـ الحقيقة انى أتابع نشاط المرأة فى هـــذه الأيام بشىء من الرضا ومن الاعجاب . فقد تطورت المرأة المصرية كما يتطور كل شىء فى المجتمع منذ نهاية الحرب وقيام ثورة ١٩١٩ .

ـ ولكن النساء يعلمن موقفك منذ أخرج قاسم أمين رحمه الله كتابه « تحرير المرأة » عام ١٨٩٩ .

ـ لقد كان قاسم نفسه يعلم أن الناس لن تتقبل آراءه ببساطة وهو يعرض للتقاليد الموروثة بعقلية المثقف ثقافة غربية ، ثم وهو يعرض لرأى الدين فى المرأة ، بينما هـــو مجرد باحث وليس من رجال الدين . ومع ذلك يجتهد فى هذه القضية الشائكة محاولا دفع المرأة نفسها الى اتخاذ موقف ، ودفع الرجل الى اعـــادة التفكير .

---

(١) ديوان حافظ جـ ١ ص ٢٩٩ .

ـ رأى قاسم ان الغربيين قد غالوا فى السفور الى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة ونحن غالينا فى الحجاب حتى صيرنا المرأة متاعا ، وحرمناها نعمة الحياة . وقد كان رحمه الله على حق حين رأى أن أسباب الفتنة ليست فيما ظهر من أعضائها وما خفى ، بل فيما يصدر عنها من أفاعيل أثناء سيرها ، والنقاب من أشد أعوان المرأة على ذلك ، لأنه يخفى شخصيتها . والحجاب على ما ألفناه مانع عظيم بين المرأة وبين ارتقائها وبذلك يحول بالتالى بين الأمة وبين تقدمها .

ـ يا أخى لقد تدرجت اليابان في الرقى السريع بينما لم تنل نساؤها شيئا مما يسمى بالحرية الغربية ، والمرأة هناك تنشأ لتكون زوجة واما .

ـ على أية حال ان قاسما نفسه يقول ان رفع الحجاب دفعة واحدة والنساء على ما هن عليه انقلاب فجائى ربما نشأت عنه مفاسد كثيرة ولكن قصده اعداد نفوس البنات زمن الصبا لهذا التغيير .

ـ لقد كان من الواجب ان يتوقف عند تربية النساء ، كما رأى مصطفى كامل رحمه الله (١) ، فهى دعوة يوافق عليها كل مثقفى الأمة ، اما الحرية للمرأة فلم يكن هناك محل للحديث عنها لأن عملية التطور تسير سيرها المحتوم ، وفرق بين التطور والتطوير القسرى .

ـ ان قاسما التفت الى ذلك وقارن مقارنة سريعة بين المراة الغربية التى دخلت الوظائف العامة ، وبين الشرقية التى تستطيع

---

(١) اللواء ٣١ يناير سنة ١٩٠١ .

متى ترقت أن تخدم بلدها على الأقل عن طريق الجمعيـــات الخيرية وما أكثر حاجتنا اليها.

ـ يا أخى لقد زرت بلادا أوربية كثيرة فوجدت الحرية قد افسدت على المرأة آدابها ومحت كثيرا من الاخلاق الفاضلة حتى عمت الشكوى هناك ، وما وافق تلك البلاد غير ما يوافق البلاد الاسلامية لأن التقاليد مختلفة .

ـ ولكنك أبديت اعجابك بالمرأة العثمانية التى أسـفرت وخرجت الى الاسواق والى المتنزهات وقلت فى مقالتك النثرية التى نشرتها فى المؤيد بامضاء « سائح » (٢) يوم اخرج قاسم كتابه : « ثم كان منى التفات الى النسوة المصليات والآخريات التاليات فرأيت لهن فى الاسفار جمال الاقمار وجلال الابرار ، أو هن لحور العين فى هذه الدار ، قد أخذن ما أمرت به الشريعة الطاهرة فلم تبد الا وجوه ناضرة الى ربها ناظرة ليس بحسـنها تطريه ولا بلونها تطلية تنبىء عن صحة كاملة وقوة للجسم شاملة ، فلما فرغن من صـلاتهن وانتهين من تلاوتهن ، خففن للذهاب وابتدرن الابواب ، فرأيت الرجال ينتحون حتى تعبر النساء وقد ملئوا وقارا كأنهم جند والمرأة بينهم لواء ، فعلمت حينئذ ان سعة الآداب اغنت المرأة العثمانية عن الحجاب ، وان اغضاء الرجال قد ناب لها عن النقاب فقلت فى نفسى ياعجبا ، خرجت من الصدف الجمانة ، الى أصداف من التكريم والصيانة» .

ـ لابد انك تحفظ باقى القطعـة ، وهأنذا اكملهـا لك :

« سبحانك ربى جعلت مضار الحجاب فى الاستانة ، منافع فى مصر الكنانة ... فطالما جنت فيها الموالد على المساجد ، وضاقت

---

(٢) المؤيد ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٩٩ « بضعة أيام فى عاصمة الاسلام » .

الزوايا عن الخبايا ، وانقلبت الخلوات فصارت للشهوات ، وعدى الله جهرة فى الحضرة ، واصبحت الزيارة حياة مختارة وحلة مستعارة وآفة البيوت ، توهنها كالعنكبوت ، فكم شقاق أوجبت، وطلاق سببت » .

ـ ولكن ذلك الذى دعا اليه قاسم أمين ، لم يعد شغل الناس بعد الحرب فقد أخذت الأمور تتطور تطورا سريعا حتى أصبحت دعوته وقد استنفدت أغراضها فى وقت وجيز ، واندفع الناس الى ما بعدها في سرعة غير منتظرة . فقــد خلعت المرأة النقاب ثم اســتبدلت المعطف الأســود بالحبرة ثم لم تلبث أن نبــذت المعطف ، وانتشرت العاملات فى المتاجر . تتابعت هذه التطورات ولم تدع فرصة للمعارضة ، فقد أعان على اندفاعها جو الثورة التى تلت الحرب وما كان يوحى به من جرأة ومن تمرد على كل قديم . وقد ظهرت طلائع ذلك في مظاهرة النساء سنة ١٩١٩ التى طافت بشوارع القاهرة هاتفة بالحرية فى طريقها الى دار المعتمد البريطانى لتقدم اليه احتجاجا مكتوبا على تعسف سلطان الاحتلال وكان عدد المتظاهرات فيها يربو على الثلاثمائة ، وعلى رأسهن صفية زغلول حرم سعد زغلول وهدى شــعراوى حرم على شعراوى . وقد قلت فى هذا الموقف قصيدتى التى سخرت فيها من سلطات الاحتلال حين تعرضت لهن ، ثم شاركت المرأة منذ ذلك الوقت فى القضايا الوطنية وفى مختلف الميادين الاجتماعية . وغفلت عين المعارضين عن هذه الخطوات التى اضفى عليها جو الثورة لونا من القداسة حفظها من ان تمس . فلما تنبه المعارضون وجدوا المرأة ماضية فى استئناف الطريق الذى وضعت قدمها على أوله باشتراكها فى ثورة ١٩١٩ ، فأخذت تؤسس الجمــاعات وتقيم الحفلات وتزعمت هذه الحركة النسوية هدى شعراوى . وربما جزع بعض المحافظين لما صحب هذه الحركة من ميــل

بعضهن الى التبرج أو نزوع الى الانطلاق وراحوا يتابعون فى ذهول تطور الزى . ولكن تيار الحياة كان يكتسح المعارضين اذ يصبحون وقد احاط بهم ما يكرهون وما يحاربون فى أشخاص بناتهم وزوجاتهم وأخواتهم حتى بدا التناقض واضحا بين ما يقولون وما يجرى فى بيوتهم .

ـ لقد ذكرنى نقاشنا اليوم بخلافى مع قاسم أمين منذ ربع قرن . وكنا نحتد احيانا فى النقاش ثم لا نلبث ان نتصافى .

ـ اتراك لم تغير رأيك فى المرأة . ان الذين استمعوا الى قصيدتك الأخيرة حاروا معك ، فأنت تؤيد ثم تعود فتسحب تأييدك ، فاذا قلت :

قل للرجال طغى الاسير ... طير الحجال متى يطير
أوهى جناحيه الحديـ ... ـد وحز ساقيه الحرير
حرية خلق الانـ ... ـاث لها كما خلق الذكور

صفقت المرأة ، ولكنها لا تلبث فى الأبيات التالية أن تفاجأ ، فتتهاوى يدها الى جانبها عندما تسمع تسجيلك لازمتها وترددها فيما تأخذ وما تدع أمام سيل البدع الذى يتدفق فى غير توقف :

فى ذمة الفضلى هدى ... جيل الى هاد فقير
اقبلن يسألن الحضـ ... ـارة ما يفيد وما يضير
ما السبل بينة ولا ... كل الهداة بها بصير

واذا سمعن ثناءك وهتافك لقاسم أمين رحمه الله قلن نصير قوى للمرأة يخلد ذكرى الرائد فى قوله :

يا قاسم أنظر كيف سـ ... ـار الفكر وانتقل الشعور
جابت قضيتك البلا ... د كأنها مثل يسير

ثم تموت الابتسامة على شفاههن فى اللحظة التالية مباشرة

حين تقرر خلافك معه وحيرتك فى معرفة حقيقة مقصده وسر دعوته ، ثم تتركهن حيارى دون ان تريح أحدا فى نهاية القصيدة :

لقد اختلفنا والمعا شر قد يخالفه العشير
فى الرأى ثم اهاب بى وبك المنادم والسمير
ومحا الرواح الى مغا نى الود ما اقترف البكور
فى الرأى تضطغن العقو ل وليس تضطغن الصدور

— لقد غيرت رأيى فى المرأة التركية ، كما غيرته فى المرأة المصرية ، أما التركية فقد سارت الى ما يشبه التسيب ، وقد قرأت فى الصحف تصريحات لفتيات تركيات يفخرن فيها بأنهن يرقصن ويدخن ويسافرن بغير أزواجهن ، وبعض الاصوات هناك ترتفع محرضة المرأة على ان تعيش على هواها مع من تشاء من الرجال (١) . وأما المصرية فقد وصلت الى المرحلة التى كانت تعجبنى فى المرأة التركية من قبل ، ولكنى مازلت اخشى عليها تقليد الأجنبية والاندفاع المدمر وراءها ، وقد نقلت هذه الأحاسيس الى قصيدتى التى سوف تلقى فى الحفل القادم .

وفى الأمسية التالية ، اشرأبت الأعناق وتطلعت العيون وأرهفت الأسماع ، بينما كان المنشد يلقى أبياته :

اذكر لها اليابان لا أمم الهوى المتهتكات
ماذا لقيت من الحضا رة يا أخى الترهات
خذ بالكتاب وبالحدي ث وسيرة السلف الثقات
وارجع الى سنن الخلي قة واتبع نظم الحياة

ثم لم يلبث الهتاف ان تعالى يشق صمت الليل حين قاربت القصيدة نهايتها ، واستعيدت الأبيات مرارا :

---

(١) السياسة الاسبوعية ١٧ يوليو ١٩٢٦ ، المنار ٢١ يوليو ١٩٢٥ .

مصر تجدد مجدها ... بنسائها المتجددات
النافرات من الجمو ... د كأنه شبح الممات
لما حضن لنا القضية ... كن خير الحاضنات
ينفثن فى الفتيان من ... روح الشجاعة والثبات
يهوين تقبيل المهند ... أو معانقة القناة
ويرين حتى فى الكرى ... قبل الرجال محرمات

دلف « العاصى (١) » الشاعر الشاب الى القاعة الخضراء الكبيرة ، فوجد جمعا من الشباب وتصفحته العيون فانتحى ناحية ثم جلس . لا شك أنهم مثله من طلاب الجامعات وشباب الشعراء والمعجبين بشعره وحكمته ، يأتون من حين الى حين ، ويلتقون به التقاء التلاميذ بالاستاذ ، يستمعون اليه ويأخذون عنه ويسيرون على دربه . لقد ارتبط به من زمن ، منذ قرأ شعره ونثره فأحبه ، وقدم اليه مجموعته الشعرية الصغيرة التى صور فيها فيضا من الاحزان يغوص فيها الى الاعماق ، فربت الحكيم على كتفه ، وقال بيته الذى يوحى بالسلوى والعزاء والأمل جميعا:

ولتعلمن اذا السنون تطاولت   ان التشكى كان قبل أوانه

أحقا هذا ؟ .. ما أصغر همومه اذن ، ولكن هناك وجها آخر لهذه الحقيقة فاذا كانت بداية الحياة كما يحسها ونهايتها كما يسمع غارقة فى الهموم ، فما أتفه الحياة . وانتشلته همهمة سرت حوله وصوت يهمس : وصل بنتاءور ، فتطلع الى حيث اتجهت الانظار ، ورأى شوقى يدخل بخطوات وانية ، مرفوع الرأس ، مبتسم الأسارير فحيا الجميع وتصدر المجلس . وأخذ يسأل عمن غاب ذاكرا كلا باسمه . لا شك انه يحتفظ بذاكرة قوية ، فبعضهم لم يحضر سوى مرة أو مرتين ، وهم مع كثرتهم يتجددون دائما .

واستمع الجمع الى بعض المنشدين ، قرأوا شعرهم ،

---

(١) انتحر بعد طبع ديوانه الذى قدمه شوقى .

فأخذ بنتاءور ـ كما اطلقوا عليه ـ يشجع هذا ، وينبه ذاك الى ضعف تراكيبه أو تكلفه ، حتى انتهى الشعراء من شعرهم . فأخرج سيجارة وضعها فى مبسمها ، ثم وضع ساقه اليمنى تحت فخذه اليسرى ، وتطلع الى الافق . لا شك أنهم يدركون أنه تهيأ لأسئلتهم ، فقد طووا أوراقهم ، وانبروا للمحاورة . قال واحد من الجمع :

ـ من العالم أيها الاستاذ ومن الحكيم ومن الطبيب ؟

ـ العالم من لا ينام والحكيم من لا يطعم والطبيب من لا يموت .

ـ هذا هو المستحيل أيها الاستاذ .. فماذا تعنى ؟

ـ اردت ان العالم من علم بالنهار وتعلم بالليل ، والحكيم من زهد فى هذه الدنيا وقنع منها بكسرة ، والطبيب من ترك طبا يعيش به الناس بعد موته .

ـ درست الفلسفة أيها الأستاذ ولكنى لم أصبح فيلسوفا فكيف تؤخذ ؟

ـ من التجربة ومن الطباع أكثر مما تؤخذ من الرقاع . والعاقل من له على كل أرض مدرسة ، وعلى كل طريق أستاذ ، المدرسة تقيم العقل فى طريق العلم ولا تتكفل بوصوله ، كالمعبد يمد السريرة في الاعتقاد ولا يتكفل لها بكشف الغطاء ، فرب عابد من نفسه وصل ، ومتعلم من نفسه حصل . عرفت صفوف العلم فلم أر كالفلسفة يأخذها المرء من نفسه ، ثم من حيث التفت فرأى ، وكلما قيل له فسمع . من حديث المتكلم ان صدقا وان كذبا ، وصموت الصامت ان بكامة وان بكما ، ونعيم المنعم وبؤس البئيس ومشية المستكبر وهذيان المهوس وعربدة السكران . ومن النمل

فى مشاغلها والنحل فى معاملها ، والذر فى مستتاره ، والبرق فى مستطاره ، والزهو اقباله وادباره ، والفلك ليله ونهاره ، والبحر مضطربه وقراره ، ومن النفس اذا اعتلت واذا صحت ، واذا طمعت واذا قنعت ، واذا رغبت واذا تسلت ، واذا شكرت واذا جحدت • ومن الطباع اذا امتحنت والسرائر اذا بليت والأهــواء اذا اختبرت • مدارس لا يفرغ اللبيب منهـــا ، ودروس لا يصبر الحكيم عنها .

قال التلميذ الفتى لأســتاذه الشيخ : سمعنا فى سياسة الأمم عن الشيخ محمد عبده ، أنه قال معبرا عن رأيه ورأى جمال الدين الأفغانى « لا يصلح الشرق الا مستبد عادل » فكيف نجده ؟

ـ جئنى بالنمر العاقل ، اجئك بالمستبد العادل . هلكت يا بنى أمة تحيا بفرد وتموت بفرد • كان الانسان فى شبيبة الدهر يؤله الجبابرة من البشر أمثاله ويحكمهم فى عرضه ودمه وماله • ولا يزال معظم الخلق حتى الآن عبادا للملوك يأتونهم طائعين ، غرهم التاج ، وخدعهم العرش ، وغشهم الحجاب ، وضــللهم الاستبداد • اســمع يا بنى ، شورى من الحجاج وزياد ، خــير من الفرد ولو كان عمر •

ـ وكيف تكون الشورى أيها الاستاذ ، وقد قال « جمال الدين » فينا : اتفقوا على أن لا يتفقوا ؟

ـ ما هذا السم فى الدسم ، ومن ذاك الذى يثبط الهمم ، هذا ومثله من الأوهام ، وأنها لتخامر العقول فتعقلها ، وتداخل النفوس فتقتلها . الأوهام داء الأمم ومنية الشعوب اذا تمكنت من قوم كانت كالفأس فى الأساس وكالنار فى الشعار وكالحبل فى الخناق وكالعلة في القلب لا يخفق الا الى حين . قال لكم رجل قولا فوهمتم فمتم أحياء ، ليس مع السلوة عيش ولا مع القنوط

عمل ولا مع اليأس حياة ، وليس أجلب للشر والضر من الدعوة الى الربوض وتوهية العزائم وامـــاتة القلوب واخراج النفوس من الرجاء الى اليأس الذى هو الموت فى اشنع صوره واقبح أحواله. أليس من الوهم القاتل للأنفس المميت للقلوب ، ان يصح فى أذهان خاصة المصريين ، أنهم أمة ليس فيهم فلاح ، ولا يرجى فى أمرهم صلاح ، وان اتفاقهم ســابع الجهـــات ورابع المســتحيلات ، الأمم يابنى لا تموت ولئن بدت عليها دلائل الموت فى أزمنة الاضمحلال فما تلك الا بؤس تزول وحال ستحول . الأمة تصح ثم تعتل ثم تصح ، تتجدد من حيث تبلى وتقوم من حيث تسقط . ومن هذا تعلم ان العلم والبيان خلقا ليكونا حرب الأوهام ، ونورا يخرج اليه الأمم من الظلمات ، وان حاملهما مطالب بالعمل ، والدعوة الى العمل حتى النفس الأخير من الحيـــاة ، فمن ثبط هممكم من علمائكم وعظمائكم ، فالووا الوجوه عنه ، وانفروا بالاسماع منه ومن دعاكم الى حياة فذلك داعى الخير فاستمعوا له وانصتوا وأولى بالذين يتصدون لفك الأمم وتحرير الشعوب ان يعلموها ان قيود الحديد لا تعالج الا بمبارد الحـــديد والعقل لا يقاوم الا بالعقل والقوة لا تستدفع الا بالقوة .

ــ وكيف تستدفع القوة والاحتلال رابض ؟

ــ علل الأمم يابنى باطنية لا يرجى فيها الشفاء حتى تعالج فى مواطنها ، وكل ضعيف الركن مضطهد وهذه سنة تسرى على الجماد والنبات والانسان والحيوان . فالجبل يجذب اليه الذر ولا يجذب هذا اليه الجبل والسرحة تزهق الحشائش ولا تزهقها هذه والذئب يفترس الحمل ولن يكون له فريسة وكذلك الناس ، وهب ان الملك ادوارد وقيصر والآخرين ملكوا علينـــا البحـــر بالاساطيل ثم ملكوا البر بالجيوش الزاحفة ، أكانوا قادرين على تفريق كلمتنا ان كان لها منا جامع أو تضييع حقنا أن كان له منا

طالب ، أم كانوا ضاربين على أيدينا ان لا نتداول أشياءنا فيما بيننا ؟ ننشط الصانع منا بالاقبال ونشجع التاجر بالتهافت على بضاعته . ان علمنا على أهل الصناعات منا نقصا ، تجملنا بنقصهم حتى يزول فتجملنا بكمالهم فانا لا نزال عراة حتى نلبس مما حكنا ولا نزال حفاة حتى تنعل أيدينا أرجلنا ولا نزال مشاة حتى نركب فيما صنعنا ولا نزال نتوسد الثرى حتى نسكن ما بنينا فان لم نفعل كنا أمة عارية كل أشيائها عارية وأعلم ان الاحتلال الذى تستعظم أمره لا يشقى بمعاكس فعال عشر معشار مايقيمه ويقعده ويضايقه ويحرجه أخذنا بالصناعة والتجارة أخذ الأمم الناهضة الراقية ، لأن الاستعمار يدخل اليوم كما يدخل التجار فكل بلاد يحكمها الأجنبى فى هذا الزمن انما يحكمها فى الحقيقة بذراع مرتفعة من الصناعة ويد قوية من التجارة .

ــ ما رأس مال الأمة اذن أيها الأستاذ ؟

ــ اللغة رأس مال الأمة فى العلم والعرفان والدين رأس مالها فى التربية والأخلاق فاجعلوا المحل الأول فى مدارسكم لهذين فالثمرات انما تأتى بقدرهما ، والانسان اذا علم كان انسان العين واذا جهل كان انسان الغابة ، والعلم ان لم يؤسس بالتربية كان لحامله محنة وللناس فتنة ، فاجمعوا بينهما في الدار ثم فى المدرسة ثم فى الحياة ، تلك المدارس الثلاث الكبر . فاما الدار فالأستاذ فيها المرأة ، وأما المدرسة فالمعلم فيها الرجل وأما الحياة فالمربى فيها الزمن . فابدأوا بالنساء فعلموهن فى الصغر يعلمنكم فى الكبر ، وربوهن فى الطفولة ، يربينكم فى الكهولة ، فالسقى بعد الغرس والتربية قبل الدرس .

ــ وما الغاية التى نسعى اليها من طلب العلم ؟

ــ محب العلم يطلبه لذاته ، وهذا أول التوفيق فى طريق

التحصيل وسبب النجاح الأوثق لأن النفس حيث رضاها وحيث يجعلها هواها ، ومن رضيت نفسه بالعلم قسما من أول يوم وامتلأ فؤاده من حبه اقبل عليه وضن به وانقطع له وألفى التعب راحة فى تحصيله واستوى عنده السلامة والعطب فى سبيله ثم لا يلبث العلم أن يعرفه قدر نفسه وأنه ما خلق فى هـذا التقويم سـدى ولا ساد نوعه على هذا الوجود عبثا ، فتأخذه من ذلك عزة بالحق وتنزل نفسه فى عينه منزلتها الحقيقية ، فيطلب العلم لهـا ، ويستكثر منه لأجلها ، ويجرى فيه الى الغايات فى سبيلها ، لما استقر عنده من أن العلم يحيى النفوس ويهـذبها ويطلعها على الحياة وأسرارها ويوصلها الى كنز أغوارها ويسهل لها محياهـا ويهون عليها الفواجع في دنياها ، وهذه هى المنزلة الثانية فى العلم يقف عندها سواد العلماء ولا يجاوزها الا أحاد ، فيعملون العمل العظيم ، ثم يموتون عن تراث فى الفضل جسيم ، من بنيان يخلدون أو حكمة يؤيدون ، أو مجد يشيدون أو فن يجددون وهذه هى رتبة الامتياز بالاختراع ، ولا يقال عن أمة أنها حية حتى يبلغ أفراد من بنيها هذه الرتبة . فليس العلم لك بسفر ، حتى يكون لك فيه سطر وليس الأدب لك كتابا حتى تزيد فيه بابا .

ـ وانبرى طالب آخر يسأل / ما هى الفضيلة أيها الاستاذ؟

ـ ترك الرذيلة .

ـ وما الرذيلة ؟

ـ السكنى فى دار الجهل والبطالة فى الشباب .

ـ فما الحق وما الباطل ؟

ـ الحق نبى قليل التبع والباطل مشعوذ كثير الشبع .

ـ والقضاء ؟

ـ محكمة ظاهرية ألجأ اليها فساد المحكمة الباطنية .

ـ والصالحون والمصلحون ؟

ـ الصالحون يبنون أنفسهم والمصلحون يبنون الجماعات .

ـ وما قيمة الشهرة ؟

ـ تغطى الشهرة على العيوب ، كالشمس غطى نورها على نارها .

ـ فما الشباب وما المشيب ؟

ـ الشباب أعراس الجمال والمشيب مآتمه .

ـ انى أحب العزلة كما أحبها البعض فهل هل فضيلة أم رذيلة ؟

ـ يا أخا العزلة .. انت لو طرت عن الناس ما وقعت الا عليهم .

ـ وما الحكمة ؟

ـ الحكمة مصباح ، يهديك حتى فى وضح الصباح .

ـ وتشجع « العاصى » ثم سأل : من طريد الحياة ؟

ـ من خطبها بلا عمل وصحبها بلا أمل .

ـ فما الموت ؟

ـ أول الخوف وآخره (١) .

---

(١) بعض هذا الحوار كتبه فى شيطان بنتاءور وبعض من حكمه التى سجلها فى كتابه اسواق الذهب .

بداية ونهاية

كان يوم الخميس الموافق ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٤ يوما مشهودا ، فقد أقام أعضاء البرلمان احتفالا بكازينو سان استيفانو وذلك لتكريم سعد زغلول بمناسبة نجاته من حادث الاعتداء عليه وتقدم حافظ ابراهيم يلقى قصيدته واستعان بيديه ورأسه فى الالقاء :

الشعب يدعو الله يازغلول	ان يستقل على يديك النيل
ان الذى اندس الأثيم لقتله	قد كان يحرسه لنا جبريل
النسر يطمع ان يصيد بأرضنا	سنريه كيف يصيده زغلول
فاوض فخلفك أمة قد أقسمت	الا تنام وفى البلاد دخيل
النيل منبعه لنا ومصبه	ما ان له عن أرضها تحويل

فلم يصنع شيئا ، ولم تنفعل الجماهير ، ولم تتحمس حتى للالقاء ، لا شىء أبدا اللهم الا ابتسامة علت الشفاه وغابت سريعا عندما قال « سنريه كيف يصيده زغلول » تورية لطيفة ولكن أين حافظ الذى كانوا يستمعون اليه منذ أكثر من عشر سنوات فيلهب أكفهم بالتصفيق ؟ وتقدم على الجارم يلقى قصيده شوقى، وتدفق الصوت هازجا :

نجا وتماثل ربانها	ودق البشائر ركبانها
تحول عنها الاذى وانثنى	عباب الخطوب وطوفانها
فيا سعد جرحك ساء الرجال	فلا جرحت فيك أوطانها

فسرت النشوة الى الحاضرين .. نشوة ركاب السفينة التى اصطدمت بالأمواج المتلاطمة ثم تحول عنها الأذى ونجت ونجا ربانها

فتعالت أنغام البشائر ، وطبول الافراح . ان الصورة والموسيقى المصاحبة لها بلغت حد الروعة وتصايح الناس أعجابا بينما استمر المنشد :

اري مصر تلهو بحد السلاح ويلعب بالنار ولدانها
وما الحكم ان تنقضى دولة وتقبل اخري وأعوانها
ولكن على الجيش تقوى البلاد وبالعلم تشتد أركانها
الى الخالق انظر فيما أقول وتأخذ نفسى أشجانها

واشتد التصفيق ، واستعيدت الأبيات فقد مست مكان الداء ، وأخذ الناس ينظر بعضهم الى بعض وقد اهتزت رءوسهم بالموافقة على كل كلمة وزموا شفاههم كأنما امتدت اشجان شوقى اليهم وهو ينظر الى الجيل الجديد ، الأمل الجديد ، البناء الجديد فيجد جانب الاخلاق وشيك التصدع وتعالى صوت الجارم :

ولن نرتضى ان تقد القناة ويبتر من مصر سودانها
وحجتنا فيهما كالصباح وليس بمعييك تبيانها
فمصر الرياض وسودانها عيون الرياض وخلجانها
وما هو ماء ولكنه وريد الحياة وشريانها
تتمم مصر ينابيعه كما تمم العين انسانها
واهلوه منذ جرى عذبه عشيرة مصر وجيرانها
وكم من أتاك بمجموعة من الباطل الحق عنوانها
ولكن رءوس لأموالهم يحرك قرنيه شيطانها

أحمد الزين ــ ما رأيك يا بشرى ؟

عبد العزيز البشرى ــ الحقيقة ان حافظا قد انتهى من زمن ، انتهى منذ عين بدار الكتب ، فقيدته الوظيفة بقيود غليظة حتى ماتت ثورته وحماسته ، كان شعلة فانطفأت ، اطفأها بيده .

لقد كانت أمامه فرصة ذهبية حين نفى شوقى ، كان يستطيع ان يكسب جمهوره فقد أصبح الصوت الوحيد القوى فى مصر ولكنه صمت حتى مل الناس صمته وانصرفوا عنه ، آثر الكسل على النشاط . حتى اذا أرسل شوقى أبياته من وراء البحر فى الحنين الى مصر ، هب الشعراء يلوذون بأميرهم ويتوجعون له ، ومن ورائهم الجماهير تحلم بايابه .

ــ أتعرف يا بشرى أنه لم يقرأ كتابا واحدا منذ عمل فى دار الكتب ، فكأن الأسفار الكثيرة العدد وراء الزجاج السميك فى مخازن لا أول لها ولا آخر قد ألقت في نفسه السأم ، ولولا ذاكرته العجيبة لما استطاع ان يجتر من محصوله الذى طال به العهد . والله لو حكمونى فى مليون جنيه لاعطيت « شوقى » تسعمائة ألف منها واعطيت « حافظ » ما بقى .

ــ مسكين حافظ ، ان نفسه تهفو الى تلك المنافسة القديمة، كان يأتى احيانا ، حاملا قصيدة ليقرأها لنا ثم يعقب قائلا : لا يستطيع شوقى ان يقول مثل هذا ، ولا يعدم واحدا من الحاضرين يوافقه على قوله .

ــ كلما فرق بينهما أصحاب الصحف الصفراء بما يلمزون به حافظا فى شعره ، وهم يدركون ان حافظا سوف يشير الى شوقى بأصابع الاتهام ، حاول زميلنا فى دار الكتب «أحمد محفوظ» ان يستل ضغينة حافظ ، فيختلق له الأحاديث فى تكريم شوقى له وحبه اياه ، وهو طيب القلب يصدق كل ما يقال له كأنه طفل صغير ، ويحمل هذا الاختلاق نفسه الى شوقى ، ولكن سرعان ما يتغير حافظ . تغيره هذه الكلاب النابحة فى أوراقها الصفراء ، فيعود حافظ الى ذم شوقى وشعر شوقى . والحقيقة ان شوقى لم يذكره بسوء قط ، وحافظ على النقيض من ذلك ، فهو اذا غضب من وشاية مسموعة أو مكتوبة ، انهال عليه بألفاظ كالحجارة . ومن

ومن العجيب، أن حافظا اذا جلس الى شوقى لوح له فى حديثه أنه من رعاياه ، ولكنه اذا خلا الى نفسه أو الى جماعة أنكر هذا وقال : منه أمير ومنى أمير ، كما قالت الانصار للمهاجرين يوم سقيفة بنى ساعدة .

واذكر مرة أنا كنا فى حجرة التدخين بدار الكتب ، نستمع الى حافظ وهو ينشدنا قصيدة جديدة فما كاد يلمح احمد محفوظ داخلا حتى قطع انشاده وصاح مزمجرا : أخرج ياجاسوس تريد ان تسرق معنى أو معنيين لتذهب بهما الى شوقى ؟ فخجل محفوظ ، ولكن سوء الموقف دفعه الى القحة فقال : يسرق منك أنت ؟ فعاد الطوبجى القديم الى قذائفه ، فقال له محفوظ : على أية حال ان شوقى يدعوك الى مائدته اليوم للغداء ، فلعن شوقى ومائدة شوقى وقال محتدم السباب . والله لو مت من الجوع ما ذهبت ، ولم نلبث حتى دخل حسين شوقى يحيى حافظا فتأمله ببصره الكليل المحتجب بالمنظار ثم تبينه فاهوى الى خديه الناحلين ورحب به ترحيبا صادقا فدعاه الى الغداء ، فما أسرع ما وافق متهللا فلما انصرف حسين شوقى برر حافظ تناقضه بقوله : انى احب أولاده ، واتصلت بينهما المودة (١) .

— ولكن شوقى أيضا له فصول باردة ، اتذكر يوم كتب أحد الأدباء مقاله عنهما بعنوان « شوقى وحافظ » فبلغ حافظا ان شوقى غضب لذكره معه فى مقال واحد ، لأنه لا يرى حافظا ندا له ، فقال حافظ يومها : لماذا يغضب ؟ اننا متلازمان ، أما سمع الناس يقولون « زفتى وميت غمر » فهل غضبت من ذلك زفتى أو غضبت ميت غمر ؟ ويقولون « سميط وجبنه » و « خيار

---

(١) حياة شوقى لاحمد محفوظ ص ١٦٠/١٦٣ .

وفقوس » و « عسل ويصل » ثم يعقب على ذلك بقوله : « أما من يكون العسل ومن يكون البصل فهذه مسألة أخرى (٢) » .

وقد تجنى على حافظ مرة أخرى عندما تقدم رئيس تحرير احدى المجلات الى شوقى وطلب اليه أن يختص المجلة دون الصحف المصرية بنشر قصيدة على ان تمنحه المجلة مبلغا من المال يوجهه الى ما يشاء ، فقبل شوقى ، ونشرت المجلة هذا الخبر وذكرت ان شوقى تبرع بالمبلغ لجهة خيرية ، وقرأ حافظ الخبر فاشتعلت الغيرة فى صدره وأسرع يهرول بعصاه الى « محمد محمود » وهو صديقه ، فتأثر « محمد محمود » ووعده بأنه سيسعى لدى المجلة لتشترى قصيدته مثلما اشترت قصيدة شوقى . وسمع شوقى فغضب وذهب الى المجلة لسحب القصيدة بعد الاعلان عنها ، فاضطرت المجلة الى تنحية قصيدة حافظ عن النشر ، وساء ما بين الرجلين ولكن نفس حافظ الطيبة ما لبثت ان غفرت .

ـ على كل حال ، لقد استكان حافظ اخيرا الى حظه ، وأخذ يترنم بشعر شوقى ، وكثيرا ما قال لنا : أنا أحسد هذا الرجل على أبيات فى سينية الاندلس ، وعلى أبيات فى ذكرى كارنارفون ، واعترف له بالتفوق فى قصيدته التى قالها في حفل « عكاظ » ، ومن قبل اعترف شعرهما .

ـ صدقت .

---

(٢) الفكاهة في مصر لشوقى ضيف ص ٧١ .

كالصخرة لا تحطمها الوعول ، وانما تحطم قرونها ، يحاول شباب النقاد أن يصعدوا على أكتافه الى دنيا الشهرة ، ولو سلكوا طريقا أخرى لمد لهم يد العون ، ولكنهم تخيروا سبيلا كثيرة المزالق، انها أخلاقيات النقاد المعاصرين كما قال له صديقه زكى مبارك ٠ ولكنه هو الذى عود أكثرهم التطلـــع الى موائده وجيبه ، وكلما احتاجوا طافوا حول شعره يتلمسون ما فيه ٠ لقد صدق الرافعى حين وصفه بانه أصبح كالجواد الاصيل ينافس حتى ظله ، انه يغار حقيقة على شعره ، غيرة الكريم على عرضه ولذلك يخرس ألسنتهم ويقصف أقلامهم بالهدايا والهبات مع انه يعلم ان أولئك المرتزقة قد شوهوا النقد الأدبى أبشع تشويه وقلبوا الحقـــائق الأدبية قلبـــا كريها ، بمعاولهم الصغيرة التى يحاولون بها الهدم لا البناء(١) ٠

نعم أخلاقيات النقاد ، أيبلغ ببعضهم الزيف الى هذا الحد ؟ ثم يخجل أن يكون شـــجاعا فلا يعلن اســمه ؟ ان ادعاءه مضحك مكشوف ولكنه مكشوف للخاصة فقط ، أما العامة فسوف يصدقون ان شوقى قد سرق بيته الشهير : « وانما الامم الاخلاق مابقيت ٠٠٠ فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا » وسرقه ممن ؟ من شاعر اسمه «ابن رعلاء العنانى» حيث يقول :

وانما الامم الاخلاق ما صلحت فان هم فسدت أخلاقهم فسدوا

والرعلاء مؤنث الارعل والارعل هو الاحمق والرعـلاء الحمقاء

---

(١) ابولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٧٠

وابن الحمقاء لا يعظ الناس في الأخلاق ولكن من من العامة سوف يكلف نفسه السؤال أو البحث عن شاعر مزعوم يدعى ابن رعلاء (١)٠

لقد تألقت في الآونة الاخيرة جماعة من هؤلاء الشباب تآمرت على شيوخ الادب فقسموا أنفسهم واختص كل شاب بشيخ ليبنوا على أنقاضهم أمجادهم ولكنهم لن يصنعوا شيئا، وحين يدركهم اليأس سوف ينصرفون الى تشييد أنفسهم فيفلحون فى الظهـور ٠ وهذه شنشنة قديمة ، فقد قال بشار : لقد هجـوت جريرا فلو أجابنى لكنت أشعر الناس وهذا بالضبط ما ينبغى أن يصنعه ، فلن يجيب واحدا منهم ولكنه سوف يطلق أصحاب الصحف الصفراء مثل «فؤاد الصاعقة» فهو لا يجارى فى سلاطة لسانه ، يختار كلاما مسجوعا مسموما ينهال به على الضـــحايا ، فى براعة فنية ، والشيخ فهيم صاحب صحيفة عكاظ ، فهو دائم الاحتفاء بقصائده ينشرها متوجة بهالات من الثناء عليه واللعنة على أعدائه ، أو غير هذين فكلهم يحوم حوله اما رغبة واما اعجابا (٢) ، وان كانوا أحيانا يجرون البلاء عليه، فهو لا ينسى يوم هاجمت «عكاظ» العقـــاد وزميله المازنى وعيرتهما بالتخلف والتقصير ، ثم أشادت بشعره فكانت النتيجة ان الف العقاد والمازنى كتيبهما «الديوان» ٠ الواقع ان للعقاد عقلية ناضجة ولكن طموحه المبكر هو السر وراء كل اندفاعاته وتحامله ، مـع انه يعلم جيدا ان الميدان سيخلو له يوما ٠ لقد جاوز فى تحامله كل حد فى ذلك الكتيب ، وانصب سوط عـذاب ، يتهمه بالتفـــكك والاحالة والتقليد والولوع بالاعراض دون الجواهر ٠ وهو محق فى جـانب ، مخطىء فى جانب آخر ، أليس يقول : « أما التفـكك فهو أن تكون القصيدة مجموعا مبددا من أبيات متفرقة لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقـــافية وليست هذه الوحدة المعنوية الصحيحة اذ كانت

---

(١) شوقى وحافظ لطاهر الطناحى ص ٢٠

(٢) حياة شوقى لاحمد محفوظ ص ٦٨ ٠

القصائد ذات الاوزان والقوافي المتشابهة أكثر من أن تحصى ، فاذا اعتبرنا التشابه فى الاعاريض وأحرف القافية وحدة معنوية جاز اذن أن ننقل البيت من قصيدة الى مثلها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضـــوع ، وهو ما لا يجوز • ولتوفية البيان نقول ان القصيدة ينبغى أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه أو الصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه بحيث اذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخـل ذلك بوحدة القصيدة وأفسدها فالقصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقـام جهاز من أجهزته ولا يغنى عنه غيره فى موضعه الا كما تغنى الاذن عن العين ••• » (١)

كل هذا حق ولكنه عند التطبيق يتخـــير قصـــيدته فى رثاء مصطفى كامل « المشرقان عليك ينتحبان » فيجرى عليها تغييرا فى ترتيبها ويخرج بنتيجة يبغيها ، وهى فقدان الوحدة الفنية فهو يريد أن يشيع الخاطر فى القصيدة ، فلا ينفرد كل بيت بخاطر فتكون كالاشلاء كما يقـــول • ولكن أليس من تحامله الفاضح أن يتخير قصيدة من قصائد الرثاء المليئة بأبيات الحكمة ؟ ومن طبيعة بيت الحكمة أن يستقل بمعناه وأن يستشهد الناس به منفردا • والواقع ان القصيدة العربية عموما تميل الى وحدة البيت الذى ينفرد بافادته حتى كانه كلام مستقل كما يقول ابن خلدون • ولعل ذلك يرجع الى طبيعة القافية نفسها ، لان السامع أو القارىء يحتاج الى الوقوف عند آخر كل بيت ، فلماذا يتوقف عنده ولا يعرض للشعر العربى عامة ؟ ثم هل يطبق العقاد هذه الوحدة فى شعره ؟ ان شعره لايجمعه الا وحدة الموضوع ، فهو يقرأ النظريات النقدية الغربية التى تلائم الشعر الغربى ثم يحاول تطبيقها على الشعر العربى ، ويفشل هو نفسه لان طبيعة الشعر العربى الغنائية تجذبه جذبا لا فكاك منه •

(١) الديوان ج ٢ ص ٤٥ •

ثم ينتقل العقاد بعد ذلك الى الاحالة فيقول : « أما الاحالة فهى فساد المعنى ، وهى ضروب فمنها الاعتساف والشطط ، ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق ، ومنها الخروج بالفكر عن المعقول أو قلة جدواه وخلو مغزاه » ٠

كلام جميل ، ولكن كيف يطبقه العقاد ؟

يزجون نعشك فى السناء وفى السنى فكأنما فى نعشك القمران

« وزعيمنا الفقيد كان فردا والقمران اثنان فمن كان الثانى فى النعش ؟ وما هذا الرثاء الذى لا يتم الا بالقاء الشمس والقمر من عليائهما ميتين ؟ وليته رثاء يتم بهذه النكبات التى تزلزل الافلاك ، فما علمنا من فرق بين شعرائنا الذين يصفون العظيم فى كل حالة بانه كالشمس والقمر وبين الطفل الذى يمدح كل ما يعرفه بانه سكر » ٠٠ ما هذا التعنت ، وما تحكيم المنطق العلمى فى نقد الشعر واتخاذ السخرية وسيلة للنقد ؟ وهل يفهم من البيت ان فردا آخر كان الى جوار مصطفى كامل ؟ المفهوم دون شك أن الظلام الذى ضل فيه الناس وحاروا بعد موت الزعيم الوطنى يجعل الناس تتشك فى أن كل نور كان يضىء لهم الحياة قد انطفأ بانطفاء حياة مصطفى كامل حتى نور الشمس الذى يضىء نهار حياتهم وحتى نور القمر الذى يضىء لياليهم ٠ على أن هذه النظرية النقدية قديمة نظرها النقاد العرب ، وهى نظرة عقيمة الى الشعر تهمل العاطفة والمجاز ، وعندما سئل أبو تمام أن يملأ للناقد كأسه من ماء الملام بعد قوله « لا تسقنى ماء الملام ، أجاب ، اذن فاعطنى ريشة من جناح الذل ، يشير الى قوله تعالى « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » ٠

وينتقل العقاد بعد ذلك الى التقليد أو السرقة ، فينظر نفس النظرة النقدية القديمة ، ويحاول أن يثبت أن كثيرا من أبيات القصيدة مسروق من الشعراء العرب القدماء ٠ وليت العقاد جارى

النقاد العرب فى قضية السرقات اذن لأدرك تقسيمهم لتوارد الخواطر والتأثر والسلخ والسرقة وغير ذلك • والسرقة فى عرفهم هى أخذ المعنى بلفظه أو ببعض لفظه وفرقوا بينهـا وبين التأثر لأن الاطار الثقافى ومحصول الشعراء من الثقافة الشعرية لابد أن يسمح بتسرب بعض الصور المخزونة أثناء عملية الابداع ، والفضل بعد ذلك لمن يبدع فى الصياغة • ومن المؤكد أن بعض الفنون كالمديح مثلا قد احترقت من زمن فلم يعد أمام الشـاعر المتأخر الا أن يعيد عرض المضامين القديمة فى شـكل جديد وقد صـنع ذلك المتنبى وغير المتنبى ، ولكنه التحامل من العقاد •

وأخيرا يتناول الناقد بعد ذلك الولع بالاعراض دون الجواهر « ويقصد به التفاهة فى المعنى غير انه يعود فيحكم المقاييس العقلية فى أحاسيس الشاعر ، فيخرج الأمر فى الحقيقة من النقـد المنصف الى التعسف المقيت ، فهذا البيت الذى استحسنه كل النقـاد وسار مسرى الأمثال على ألسنة الناس جميعا :

دقـات قلب المـرء قائلة له
ان الحيـاة دقائق وثـوان

« معناه فى نظره أن السنة أو مائة السنة التى قد يعيشها الانسان مؤلفة من دقائق وثوان وهذا هو جوهر البيت فهل اذا قال قائل اليوم أربع وعشرون ساعة والساعة ستون دقيقة يكون فى عرف قراء شوقى قد أتى بالحكمة الرائعة ؟ » أليس فى اقتران دقات القلب بدقات السـاعة براعة تهدينا الى واجب الضن بالحياة ، وتذكرنا ان كل دقة تعنى قدرا من حياتنا قد وضع خلفنا بعيدا عنا ؟

واذا كان هذا التعسف واضحا فانه أوضح فى مقالاته فهو يهاجم شعر الأحداث أو شعر المناسبات كما يسميه ويهـاجم كل شعر قيل فى كل مخترع حديث فهو فى نظره تجـديد قاصر لان

شعراء أوروبا وأمريكا لم يجتمع مما نظموه فى وصف المخترعات ما يملأ كراسة صغيرة ولان «جوته» لم يكتب بيتا فى وصف الزلازل السياسية التى أحاقت بألمانيا فى عصره • فهو يستلهم فى حكمه الصورة الادبية الاوربية وربط الشعر العربى بعجلة الشعر الغربى تحكم وهو بالضبط ما يعيبه عندما يقلد شاعر معاصر شاعرا عربيا قديما ، فهو تقليد على أية حال • ولكن تقليد الشعراء العرب أقرب الى نفسيات الناس ان كان لا بد من التقليد وهذا ما اسقط شعر شكرى والمازنى •

ان الشباب من النقاد يتتبعون شعره ، كل قصيدة ينتظرونها ليكتبوا مقالة عنها ، ميخائيل نعيمه يكتب عن قصيدة العودة من المنفى وطه حسين يكتب عن شيكسبير وشبان آخرون يكتبون عن أم المحسنين ويتوقفون عند قوله « وقفى الهودج فينا ساعة » فيقولون انها لم تعد فى هودج وانما عادت فى سيارة ، فلا زمام ولا ستر ولا شيء ، فلماذا الارتداد الى الوراء ، الى الجاهلية وعصر الناقة والجمل ؟ عجيب أمرهم هل على الشاعر من بأس فى استخدام ذلك كله ؟ انها رموز منبعثة من الماضى السحيق تكسب الموقف جلالا ، واعجب مافى الامر ان الشعراء الغربيين أنفسهم يستخدمون أشياء يونانية ولاتينية كثيرة ولا يلومهم أحد من النقاد لانهم يعرفون قيمة تلك الرموز فى اضفاء جو خيالى فيه القديم والجديد وفيه الماضى والحاضر •

وشعر المناسبات الذى كثر الحديث حوله ، ما خطبه ، ألم يكتب ميخائيل نعيمه فى « الحرب العالمية » ؟ ومع ان القصيدة من شعر المناسبات فقد لقيت استحسانا من النقاد لان العاطفة فيها دفاقة ، فهل من الممكن أن تحدث الاحداث الضخام وعلى الاخص الاحداث الوطنية فلا ينفعل الشاعر بها ولا يعبر عنها لان شاعرا ألمانيا لم ينفعل باحداث قومه ؟ ان الامر كله لا يعدو أن يكون صراعا بين شيوخ الادباء وبين شبابه • ولكن الغريب أن ينبعث صوت

شاحب من شيخ مهدم فى العراق · فقد سمع ان الشاعر الزهاوى كتب سلسلة مقالات ينقد فيها قصيدته فى رثاء «اسماعيل صبرى» حين يقول :

أجل وان طال الزمان موافى
اخلى يديك من الخليل الوافى

ما انت يادينا ارؤيا نائم
ام ليل عرس ام بساط سلاف

وترى الجماجم فى التراب تماثلت
بعد العقول تماثل الاصداف

فالبيت الاول فيه ابتداء بالنكرة لا يجوزه النحويون، والثانى فيه من الحشو البارد مالا يتجرع حتى فى حمارة الصيف ، والثالث فيه مفارقات عجيبة ، وهكذا بقية الابيات ولكنه لحسن الحظ قد حاول أن يعارضها فانكشف وسقط ·وتصدى له طالب اسمه «بهجت الأثرى » على صفحات نفس الجريدة التى نشرت نقده ، بل لقد نشرت الجريدة نقد الطالب لقصيدة الزهاوى ورده عليه تحت عنوان « بين اديبين » فرفعت الطالب الى مستوى الشاعر وهبطت به الى مستوى الطالب ، والحقيقة انه طالب ألمعى ، فقد نبهه الى ان النحويين يجوزون الابتداء بالنكرة اذا كانت هناك فائدة ، وصحح له أخطاءه فقال ان هدف شوقى من رؤيا النائم وليل العرس هو اسراع الزمن وليست اللذة كما وهم ، ثم انقض على قصيدة الزهاوى يبين مافيها من سخف ، ووقف طويلا عند قوله معارضا البيت الثالث : «والقحف بعد المخ غيبه الثرى» متقززا من عبارته ، ثم القمه حجرا فلم يستطع ردا(١) ·

---

(١) جريدة العراق ١١ حزيران ، ٩ آب ١٩٢٣ ·

واذا كان بهجت الاثرى قد تكفل بالزهاوى ، فقد تصدى مصطفى صادق الرافعى لمن أسموا أنفسهم بالمجددين ، الذين يحاولون الثورة على الادب العربى • وقد وقف كتابه « على السفود » ونذره للسخرية من العقاد ، فنقده نقدا جارحا ، وأظهر زيف ادعاءاته فى نظرياته النقدية ، وفشله فى تطبيقها عمليا فى شعره ، ففى شعره من السرقات والاحالة والاخطاء اللغوية والانهيار والبرود ما يفوق كل حد ، أما كتابه « تحت راية القرآن » أو « المعركة بين القديم والجديد » فقد ركز فيه الهجوم على طه حسين وان لم يعف العقاد ولا غيره من المخدوعين والمغرورين من بطشه • فهو يشبه انصار الجديد برجل اسمه « أبو خالد النميرى » تروى كتب الادب انه ولد فى البصرة ونشأ بها ثم خرج الى البادية فأقام أياما يسيرة وعاد بعد ذلك يتكلف لغة الاعراب ، حتى لقد روى انه رأى الميازيب على سطوح الدور فأنكرها وقال : ما هذه الخراطيم التى لا نعرفها فى بلادنا ؟ وهكذا ترى أنصار الجديد فتعرف منهم اباخالد الفرنسى واباخالد الانجليزى وغيرهم ممن ينكرون الميراث العربى بجملته فى لغته وعلومه وآدابه وهم على ذلك أعجز الناس عن أن يضعوا جديدا• وهكذا رد الرافعى سهام النقاد الى نحورهم أما هو فليس ناقدا حتى يدخل المعركة انه شاعر وحسب وسوف يصنع ما صنع جرير ولكنه سوف يغيظهم دائما بانتشار شعره وعجزهم عن اللحاق بغباره والفخر بتلك المكانة المقدسة فى قلوب الجماهير :

رواة قصائدى فاعجب لشعر
بكل محلة يرويه خلق

تتويج

كان يحس بغبطة شديدة فى ذلك اليـوم وكأنما سرت دماء الحياة فى جسده فتية ترد اليه شـبابه من جديد • وهو يعلم ان الاديب قلما كرمه الناس فى حياته مهما احترق من أجلهم حتى اذا مات أوقدوا الشـموع له ، وحجوا اليه فى ذكراه ، ولكن صديقه أحمد شفيق أنبأه ان كثرة من أدباء مصر قد اعتزموا اقامة احتفال كبير على نطاق عربى تكريما له ، انه أبلغ رد على أولئك المتعسفين من النقاد ، وأروع جزاء يناله •

كان ذلك فى أواخر اكتوبر عام ١٩٢٦ حين اجتمعت نخبة من المفكرين فى دار الرابطة الشرقية ، وقررت تأليف لجنة باسم «اللجنة العامة لتكريم شوقى» ضمت طه حسين وأحمد أمين ومحجوب ثابت والآنسة مى زيادة وفارس نمر وعبد العزيز البشرى وأحمد حافظ عوض وأنطون الجميل وغيرهم ، وانبثقت منها لجنة تنفيذية قامت بتوجيه نداء الى أبناء الوطن العربى كله حددت فيه يوم ٢٩ ابريل عام ١٩٢٧ موعدا للاحتفال الذى يستمر أسبوعا كاملا ، وطلبت فى ندائها أن تصلها الابحاث التى سوف تلقى فى المهرجان • ولم تمض أيام على هذا النداء حتى وصلت اللجنة أنباء عن تأليف وفود رسمية وشـعبية من أبناء الاقطار العربية وأدبائها ، من فلسطين ولبنان وسوريا والاردن والبحرين وعدن ولحج والمهجر والمغرب وقرر منتدى التهذيب فى بغداد اقامة حفلة تكريم لشوقى فى نفس اليوم الذى يحتفل به فى القاهرة ، وارسال ما يلقى من كلمات للجنة التكريم العامة ، كما قرر المستشرقون البلجيك ايفاد الاديب فندنبرج نائبا

عن شعراء بلده ، ثم تألفت لجنة من الجمعيات النسائية لتمثيل المرأة فى المهرجان(١) ٠

وتوالت الهدايا تعبر عن العرفان بالجميل ، وتقدير المواهب الفنية ، فأرسل أمير البحرين نخلة من الذهب وجناها من اللؤلؤ ، وبعث الاتحاد النسائى كأسا ذهبية ، كما قدم النادى العربى بعدن قلما من الذهب ، وقدم النادى العربى فى بمباى ، علبة من الفضة داخلها اطار فضى حول قصيدة « قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا» ولكن أروعها جميعا وأكثرها دلالة ، كتاب تكريم من المجـــاهدين السوريين ممهور بدم الابطال(٢) ٠

وفى ١٥ فبراير عام ١٩٢٧ تشكلت لجنة مالية وأخرى تنظيمية وثالثة للحفاوة ورابعة لدراسة الابحاث والقصائد واختيار ما يلقى منها فى المهرجان ، وقبل «سعد زغلول» رئاسة شرف الحفل ــ وكان الرئيس الفعلى هو «أحمد شفيق» ، ثم وافق مدير الجامعة « أحمد لطفى السيد » على اقامة تمثال لشوقى من البرونز يزاح عنه الستار فى المهرجان (٣) ٠

وجاء يوم الافتتاح ، واجتمعت الوفود بدار الاوبرا ، وصدحت الموسيقى ، وكان يوم عيد كبير ٠ وتقدم الاستاذ الجديلى نائبا عن سعد زغلول فى القاء كلمته نظرا لمرضه ، فحيا الوفود الذين جاءوا معبرين عن أوثق الروابط الاخوية ، لتكريم الشاعر العظيم ، وتمنى للمهرجان النجاح ٠ واعقبه أحمد شفيق رئيس الحفل ، فألقى كلمة قال فيهـــا : « السلام عليكم يا امة العرب والسلام عليكم ياحماة

---

(١) ابى شوقى لحسين شوقى ص ١٤٤ ومابعدها .

(٢) اثنا عشر عاما فى صحبة أمير الشعراء لاحمد عبد الوهاب ص ٤٠ ومابعدها ٠

(٣) أعمالى بعد مذكراتى لأحمد شفيق ص ٥٦ ٠

الادب ، ها انتم أولاء قد اجتمعتم من مختلف الاقطار لتكرموا شوقى، وبعبارة أصح لتكرموا العبقرية فى شخص رجل منكم يعود الى لغتكم بكل ما أحرز من فضل ، ويعود على أقوامكم كل ما أحرز من فخار . ليست الامم أيها السادة بكثرة عددها ، انما الامم بمن تخرج من رجال عظام وأولئكم ثروتها وأولئكم عزها وأولئكم ذكرها الخالد على التاريخ . فاذا اجتمعتم اليوم لتكرموا شوقى ، فان هـذا التـكريم ينطوى على معان عدة كلها سام وكلها نبيل : منها عرفان الجميل ، وان الامة تقدر عظماءها وتنزلهم من الاكرام منازلهم الحقيقة بالاعظام. ومنها تشجيع النابغين على العمل ، فان فتـــور الامم عن تشجيع عبقريتها من شأنه أن يدب الفتـــور الى هممهم ، والخطب فى هذا عليهم دون الخطب على الامة جمعاء . ومنهـــا استدراج العبقريات الناشئة فى نفوس الناشئين الى الظهور ، وهيهات أن يغريها شىء على التجلى والتدفق كما يغريها اكرام من تمت عبقرياتهم من العاملين . واننا اذا كنا فى العالم الشرقى بوجه عام ، وفى العالم العربى بوجه خاص ، فى حاجة الى الاستمساك بأسباب القوة فأشد حاجتنا فى ذلك الى الاستكثار من عظماء الرجال .

وهذا شوقى عظيم من يوم ظهر ــ وهنا أزاح الستار عن تمثال شوقى ــ عبقرى من يوم نجم ، ولكم دوى صوته المرن بأغلى الشـــعر وأزكى الكلام ، ولكم جدد فى لغة العرب وفسيح مجالها من بيان وأدب ، ولكم رقى بها مرقى كريما بين لغات العالم » .

كلام جميل يزيده احساسا بالسعادة ، انه يومه دون شك ولكنه لا يبغى كلمة تقليدية ، انه يبغى اعتراف الأدباء والشـــعراء بامارته للشعر ووضع تاج القصيد على رأسه ، وبذلك يتم لأول مرة فى تاريخ الأدب العربي الاجماع على ريادة شاعر واحد للوطن العربى كله . ومن العجيب أن يكتفي العراق باقامة حفل فى بغداد ولا يرسل وفدا يمثله فى المهرجان ، ولعل الرصافى الضـحل الثقـافة ، أو

الزهاوى الشاعر التعليمى يطمع فيما يطمع فيه العقاد ، وترامى الى سمعه صوت « حافظ عوض » سكرتير المهرجان يردد :

« لقد وضع شوقى « مصر » فى موضع الزعامة الأدبية على كافة البلاد العربية ، وهو ما تغتبط به مصر الناهضة وتقدم من أجله لابنها « شوقى » شكرها وتكريمها ، ان معرفتنا هذه المنزلة لشوقى فى العالم العربى بأسره من مراكش غربا الى البحرين وما بين النهرين شرقا هى التى دعتنا الى أن ننتهز هذه الفرصة ، فنجعل من تكريمه مؤتمرا عربيا أدبيا ، تعد أيامه أعيادا للعلم والأدب » ٠

لقد اعترف حافظ عوض بالزعامة الادبية ، ولكنه مصرى ثم هو كاتب ، ليت هذا الاعتراف كان من شاعر عربى ، ولكن من ينافس شوقى من الشعراء العرب ؟ ليت هذا الاعتراف اذن كان من النقاد العرب ٠ لو اعترف محمد كرد على وهو الناقد الفذ لتمت البيعة ، واصاخ السمع الى كلمات الناقد بينما كان صوته الحفيض يردد : « يحق لمصر اليوم أن تبالغ بالحفاوة بشوقى لنفوذ شعره الى أعماق قلوب العرب على اختلاف الاقطار والامصار ، فالشعر كما تعلمون ، ما برح منذ الزمن الاطول يثير نفوسا ويهذب عواطف ويجمع الاهواء الممزقة ويثقف عقولا ويلطف أذواقا ٠ والحق يتقاضانا دينا أسلفه بعض الشعراء لنهضتنا الأخيرة ، وأن نذكر لهم محامدهم وننوه ببعض مآثرهم ، وفى طليعتهم حامل لوائهم المجدد، عزيزنا وعزيز العرب : شوقى » انه اقرار صريح من الناقد العربى الكبير ، فلم يبق اذن الا الشعراء ، وعلى رأسهم دون شك حافظ منافسه القديم ، أما مطران فقد تخلف عن السباق ، ولماذا نسبق الاحداث ، انه ينشد أبياته :

يا باعث المجد القديم بشعره
ومجدد العربية العرباء

انت الامـير ومن يكنه بالحجى
فله به تيـــه على الامـراء

اليوم عيدك وهو عيد شـــامل
للضاد فى متبـــاين الارجاء

فى مصر ينشـــد من بنيهـا منشد
وصداه فى البحرين والزوراء

ووقف حافظ فتطلعت اليه الانظار ، ان الناس جميعا يعرفون تاريخ المنافسة بينهما ، فقد كانا دائما جوادين أصيلين ، والوفود العربية مشوقة الى ما يقوله حافظ ، فهم يحبونه كما يحبون شوقى، وهو لا ينسى يوم ذكرت الصحف احتفاء أهل فلسطين بحـافظ حين زارها ، فاقبل عليه شيخ مهدم يقبله ويبكى ثم يردد : الحمد لله الذى رأيتك ياحافظ قبل أن أموت ٠ وانساب صـــوب حافظ كما ينساب النغم من أوتار الكمان :

بلابل وادى النيـــل بالمشرق اسجعى
بشعر أمير الدولتين ورجعى

أعيدى على الاســـماع ما غردت به
يراعة شـــوقى فى ابتـــداء ومقطع

براها له البارى فلم ينب سنها
اذا ما نبا العســـال فى كف أروع

تملـــكت من ملك القريض فسيحه
فلم تبق ياشوقى لنا قيد اصبع ٠٠

أمير القوافى قـــد أتيت مبايعا
وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

فغن ربـــوع النيـــل واعطف بنظرة
على ســـاكنى النهرين وأصدح وأبدع

وتوقف عن الانشاد وتقدم من شوقى الذى كان يجلس قريبا منه ، ومد يده مبايعا ، فعانقه شوقى وأخذ الموقف الناس فصمتت حينا ، ولكنها لم تلبث ان أفاقت فدوت القاعة بالتصفيق والهتاف، حتى اذا سكت الهتاف كانت الدموع تترقرق فى عينى شوقى ، وهو يدفع قصيدته الى الاستاذ محمد توفيق دياب .

مرحبا بالربيع فى ريعـانه
وبأنـواره وطيب زمـانه

رفت الارض فى مواكب آذا
ر وشب الزمان فى مهرجانه ..

أين نور الربيـع من زهر الشـعر
اذا ما اسـتوى على افنـانه

لم تثر امة الى الحـق الا
بهدى الشعر أو خطا شيطانه

ليس عزف النحـاس أوقع منه
فى شجاع الفؤاد أو فى جبـانه ..

وهلل الحاضرون للابيات ، واستعادوها مرة ومرات ، انه أمير الشعراء ، ولا بد أن تكون قصيدته ذات مستوى فنى رفيع . واذا كان قد تحدث عن قيمة الشعر فى هذه المقدمة ، فالابيات التالية وصفية تنقل صورا سريعة لما حظى به من هدايا :

قلدتنى الملوك من لؤلؤ البحرين
آلاءهـا ومن مرجـانه

نخلة لا تزال فى الشرق معنى
من بداواته ومن عمـرانه

حن للشام حقبة واليها
فاتح الغرب من بنى مروانه(١)

وحبتني بمباى نصل يراع
افرغ الود فيه من عقيانه

انتضيه انقضاء موسى عصاه
يفرق المستبد من ثعبانه ..

ان حياءه يمنعه من المباهاة بامارة الشعر ، فهو فى موقف يحلو فيه التواضع ، فلا فضل له فيما يقول لانه كالمغنى الذى وهبه الله الصوت الجميل وهو يدرك أن حافظا وغيره من الشعراء الكبار قد اعترفوا بانهم منذ اليوم أصبحوا من رعاياه ، ولكنه يجل قدرهم ويعرف ان الحظ كان يمكن أن يكون هنا أو هناك :

شرفت مصر بالشموس من الشر
ق نجوم البيان من أعيانه

لست أنسي يداً لاخوان صدق
منحونى جزاء ما لم أعانه

رب سامى البيان نبه شانى
أنا أسمو الى نباهة شأنه

كان بالسبق والميادين اولى
لو جرى الحظ فى سواء عنانه

وتر فى اللهاة ما للمغنى
من يد فى صفائه وليانه

---

(١) اشارة الى أبيات الامير الشاعر عبد الرحمن الداخل فى النخيل الذى ذكره بوطنه .

ولكن قيمة فنه الحقيقية تتركز عند الجماهير فى تعبيره عن آلام وآمال الشعوب العربية التى ألفتها الجراح فراحت تبحث عن الصوت المعبر حتى وجدته فى شعره فهتفت له قبل أن يهتف له المؤتمرون :

كان شعرى الغناء فى فرح الشر   ق وكان العزاء فى أحزانه

وتتابعت الاحتفالات فى الايام التالية فى مسرح الازبكية وفى كازينو الجزيرة وفى غيرها وغنى عبد الوهاب وغنت أم كلثوم وتوالت البحوث والقصائد ولكنه كان فى نشوة عجيبة فهو مع الوفود بجسمه ولكن روحه وخياله كانا يهيمان فى اودية عبقريته، ويستعيدان لذة التتويج مرة ومرة ومرات •

فى الليل لما خلى

كانت « الكرمة » قد احتشدت بالزوار وازينت كعادتها أيام شم النسيم ، وفرقعت الضحكات حين قص عليهم شوقى ما صنعه حفنى محمود فى عبد الستار الباسل فالاثنان عضوان فى البرلمان وكانا يجلسان متجاورين حين احتدمت المناقشة فى أمر من الأمور وحدثت ضجة عالية هب على أثرها عبد الستار الباسل من نوم كان مستغرقا فيه وسأل جاره عن السبب فقال له حفنى محمود : « بعض الأعضاء تقدموا باقتراح الى المجلس يطلبون فيه تحريم ذبح الجمال » فغضب النائب الذى الف هذا اللحم هو وأجداده فى القبائل وطلب الكلمة من سعد زغلول ، ثم وقف يحتج على هذا الاقتراح · ففطن سعد الى مكيدة حفنى وأجاب عبد الستار قائلا : « نم يا عبد الستار فان الجمال ستبقى فى خير » ·

وتوقف الضحك وسكتت الأصوات حين بدأ عبد الوهاب يداعب عوده ، فسرت الأنغام عذبة ثم انساب صوته يحكى أن العيون النائمة التى لم تعرف الشجن ، والعيون اليقظى التى تشتهى النوم « فى الليل لما خلى » ثم انسجمت الموسيقى مع الصوت :

الفجر شأشأ وفاض
على سواد الخميلة
لمح كلمح البياض
من العيون الكحيلة

واستخف الطرب بشوقى حتى ألقى طربوشه على ركبته فهذا اللحن أسمعه اياه عبد الوهاب بتوزيع مختلف حتى تخير هذا الأخير

بعد مراجعته فيه مرات · لقد التقى الشاعر بمغنيه أخيرا ولكنه ما زال يعتمد على التنغيم والتصوير وانتخاب الألفاظ ، ولكن صوت عبد الوهاب هو الذى أخرجها فى هذا الاطار البديع · لقد استطاع « عبد العزيز البشرى » ان يقدم اليه المطرب الموهوب الذى كان يبحث عنه · والتفت البشرى الى شوقى يسأله وقد أخذته نشوة الطرب :·

ــ لماذا لم تنظم من قبل هذه الأدوار ؟

ــ لأنى لم أجد المطرب فلما وجدته نظمت له بالفصحى ثم بالعامية ، حين وجدت الأغنية العامية أكثر انتشارا على ألسن الناس ثم وجدت فى أغانينا ابتذالا مروعا مثل « ارخى الستارة اللى فى ريحنا أحسن جيرانا تجرحنا » ، بربك ما هذا السخف ؟

ــ ولكن لماذا اخترت جانب الفراق واللوعة ؟

ــ لا يمكن أن تمتد الحماسة الى مالا نهاية والأعصاب المشدودة بحاجة الى شيء من الراحة فاذا كان الجانب الوطنى قد سيطر أو كاد على شعرنا الفصيح ، فمن الطبيعى أن تسيطر العاطفة على الأغنية · وقد نظمت فى الفراق واللوعة أغنية «بلبل حيران » و « فى الليل لما خلى » ، لأن الحرمان يصفى الأرواح والنفوس ،وهو الطابع العام للمواقف العاطفية فى مصر ومع ذلك فقد نظمت فى اللقيا أغنية « النيل نجاشى » ثم وصلت بها الى نهايتها فى أغنية «ليلة الزفاف » ·

ــ مع اعجابى بمثل هذه الأغنيات العامية فان أخشى ما أخشاه ان يتأثر بك شباب الشعراء ·

ــ ان « رامى » قد تأثر فعلا بهذا الاتجاه ولكنه لا ينظم بالعامية الا الأغنية مثل أغنيته الجميلة « ان كنت أسامح » لأن الأغنية شعبية يرددها الجاهل والمثقف والفلاح والموظف والصغير والكبير فاذا كان

لابد أن تكون بلغة هؤلاء الناس ، فينبغى أن نرتفع بهـا ولكن فى اطارها العامى ، بمعنى أن تكون فى ألفاظها بعيدة عن السوقية وفى معناها بعيدة عن الابتذال ، أما الشعر فهو ليس فن الجاهل ولا فن الطفل ـ وان كان للاخير منظوماته الخاصة ـ وأنا أخشى فعلا على العربية من «بيرم» فان قدرته الهـائلة على التعبير بالعامية عن كل مواقف الحياة فى مرونة ساحرة قد دفعت الناس الى ترديد ازجاله وقد تدفع بعض شباب الشعراء الى الاقتداء به ونحن فى حاجة الى الحفاظ على اللغة العربية ٠

ـ هذا ما نشعر به لان الفصحى هى الجامعة اللغوية للشعوب العربية وهى لغة القرآن ، ويكفى كما يقول الرافعى أن ينشأ جيل واحد لا يقوى على قراءة القرآن حتى يقوم سد منيع بين العرب وبين دينهم ٠ ولكن القضية هى ما يثيره المستشرقون ويغرون به الناس من أجـل صرفهم عن تعلم العربية حين يشبهونها باللاتينية التى هجرتها البلاد الاوروبية واستخدمت بدلا منها العاميات التى كانت موجودة ٠

ـ لا يجوز القياس على اللغة اللاتينية لان العامى الفرنسى مثلا ينظر الى اللاتينية نظرته الى لغة غريبة ٠ أما العـامى العربى فاذا فاته بعض الالفاظ ، فان المعنى الاجمالى يندر أن يفوته ٠ وأما الزعم بان اللغة العربية بدع فى اللغات بامتياز اللغة المكتوبة فيها عن لغة الحديث فزعم باطل ٠ فلغة الادب لابد فيها من اختيار حتى بالقياس الى العـامية نفسها والانجليزى العامى لا يفهم سبنسر فى فلسفة العمران والفرنسى العامى لا يفهم أبحاث رينان فى فلسفة التاريخ ٠

ـ ان الاتهام الموجود للعربية دائما هو انها عسيرة التعلم ، وان العامية يمكن أن تحل محلها وهى لغة الشعب ٠ وقد برز هذا الاتجاه بعد ثورة ١٩١٩ ، التى أثارت الروح الشعبية ، مع أن العامية مختلفة من بيئه الى بيئة اختلافا شديدا ، ثم ليست لها قواعد عامة ،

ومن أجل ذلك فهى سريعة التطور حتى لا تستطيع أن تفهم عامية القرن الثامن عشر مثلا ٠

يا أخى ان الذين يثيرون قضية صعوبة العربية ويتشاكون ، يتقنون ما هو أكثر منها تعقيدا ، بل أن منهم من يتقن لغتين أو ثلاثا معقدة فى بعض الأحيان ويخجلون أن يخطئوا فيها ، حين لا يقيمون لغتهم وربمـا فاخروا بذلك وقالوا سـاخرين (نحن لا نتكلم لغة سيبويه) ولعل كثيرين منهم لا يعلمون أن (سيبويه) كان فارسى الأصل ٠

ـ الأعجب من كل هذا أن يثير « سلامة موسى » فى عدد يوليو ١٩٢٦ موضوع المسرحية وخلو الأدب العربى منها وقد قيلت آراء مختلفة فى هذا ، ولكنه ادعى أن الفصحى هى السبب ولن تنشـأ مسرحيات ما لم تكن العامية هى الاداه واستشهد باراء المستشرقين فى ذلك ٠

وغاب فى تيار من الأفكار ، أخذه بعيدا بعيدا ، أحق هذا الذى يسمعه ؟ لا شك أنه غير صحيح وربما أثبتت الأيام ذلك ، وتنبـه على صـوت عبد الوهاب يـردد « كان مين مفـارق وجيعته » وتصـفيق الحاضرين ، وانفض السمار ٠

فى المسرح

لماذا لا يعرف العرب المسرح ؟ لا شك ان المسرح يحتاج الى الاستقرار فى بيئة متحضرة وكان العرب فى جاهليتهم يعيشون على هيئة قبائل رحل فمن العسير ان ينشأ المسرح بينهم لأن الفرد لم يحس مأساته الخاصة • ولكنهم استقروا فى العصور التالية ، وكانت لهم حضارات ، وترجموا عن اليونانية الفلسفة والمنطق ، فلماذا يفهموا المسرحية • وربما كانت هناك اسباب اخرى فالمسرح اليونانى كان قد اختفى حين ترجم العرب الثقافة اليونانية لان المسيحية فى ذلك الوقت كانت تراه مغرقا فى الوثنية ولكن السبب لن يكون على أية حال قصورا فى اداة التعبير فقد عبرت اللغة عن كل متطلبات الحياة الاجتماعية والحياة الفكرية فى عصور التطور دون قصور • ولكن الدليل العملى هو وسيلة الاقناع وقد انتهت امارة الشعر اليه بالأمس ومن حق الأدب العربى عليه أن يسد هذه الثغرة ، وان يتجه بكل طاقته الى المسرح •

انه معجب بالمسرح الكلاسيكى فى فرنسا ، مسرح كورنى وراسين وأمثالهما ممن استمدوا أصول مسرحهم الشعرى من التاريخ ومن أعمال البطولة وصاغوها صياغة أسلوبية ممتازة • وقد كان هذا التأثر واضحا يوم كتب « على بك الكبير » منذ ثلث قرن ، ولكنه اليوم أكثر نضجا وأعمق ادراكا لأصول الفن المسرحى خاصة بعد ان قرأ هنرى الرابع وهنرى الخامس والملك لير لشيكسبير •

كان يشهد رواية فى احدى دور السينما عن ملكة فرنسية

صورها المؤلف السينمائى فى صورة امرأة داعرة ، لا تتورع عن شيء ، فأخذه العجب للمبالغات والاكاذيب التى تدخل التاريخ على أنها وقائع نتيجة هوى الكاتب السياسى أو ميوله الدينية أو رغبته فى الاتيان بما يثير الجماهير ، وهنا برزت « كليوباترا » أمام مخيلته بما يحيطها من اطار سودته الشهوات . ودفعه هذا الموقف الى مراجعة التاريخ نفسه والاستعانة بعد ذلك باســـاتذة التاريخ القديم فى الجامعة وتجلى له ما اقتنع بانه الحقيقة فمنشأ التشويه اتى مما كتبه « بلوتارك » وهو من صنائع حكام الرومان ، وعنه أخذ غيره من المؤرخين الذين بالغوا فى الحملة عليها ولكن بعض المؤرخين قد وقفوا موقف المدافع لا موقف المنصف ، فصوروهـــا متعمقة فى الديانة المصرية ومتضلعة فى العلم والفلسفة ، بل حكيمة وفيلسوفة، وبرأوها من كل عيب ، وهو موقف لا يحتمله التاريخ ، ومن الانصاف لها وللتاريخ ان تعرض حياتها كما عاشتها فهى انسانة فاتنة لها ما للفاتنات من غى وهى ملكة لأمة عظيمة لها ما للعظمـاء من طموح وكبرياء ، وقد دفعتها هذه الكبرياء الى التضحية بالذات فى سبيل الكرامة (١) .

وهو قد شاهد فى فرنسا مسرحية « كليوباترا » التى الفها أميل مورو (٢) ومثلت عام ١٨٩٠ ثم اطلع على مسرحية شكسبير (٣) ، واعجب يوم قرأها بعبقرية المؤلف التى تجلت فى نمو البناء الدرامى فلم يبق أمامه الا أن يكتب المسرحية حتى اذا ما انتهى منها عرضها على صديقه « عزيز عيد » رجل المسرح المشهور ليناقشه فيها قبل عرضها على المسرح .

---

(١) شوقى وحافظ لطاهر الطناحى ص ٤٠ .

(٢) مجلة الكتاب عدد اكتوبر ١٩٤٧ « فوق جبال الاولمب » لدرينى خشبه

(٣) مسرحيات شوقى لمندور ص ٤٠ .

وهكذا انكب على العمل أياما طويلة كانت المسرحية فيها هى شغله الشاغل ليلا ونهارا وحين تمت طلب « عزيز عيد » ، فقرأها قراءة متأنية ، حتى اذا ما طوى الأوراق ، سأله شوقى :

ـ لقد شكلت مادة المسرحية في حدود الاطار العام للتاريخ ، ولكنى استعنت بطبيعة الحال ـ بشخصيات ثانوية تلقى ظلالا على الابطال لتكشف عن بعض جوانبهم ، وغيرت فى الدوافع النفسية والاخلاقية للوقائع لتخدم الخط العام للمسرحية كما رسمته ، واعتقد ان هذا كله من حق الكاتب المسرحى ٠

ـ هذا صحيح ٠٠ ولكن لاحظت انك تهدف الى أغراض وطنية وقومية ، ولعل هذا هو الخط العام للمسرحية الذى رسمته ، فلماذا اخترت فترة ضعف فى تاريخ مصر ؟

ـ ان الكوارث هى التى تظهر معدن الناس ولكن هل نجحت المسرحية فى حدود مادتها من حيث البناء ؟

ـ من المعلوم ان الكلاسيكية قد تعصبت لما يسمونه « الوحدات الثلاث » والملاحظ انك لم تتقيد بهذا القانون ٠ ففى المسرحية نرى حبا آخر بين هيلانه وحابى ٠ وقد اثبت الادب المسرحى الخالد أنه لا ضير من الخروج على المعنى الضيق لهذه الوحدة على شرط أن تكون الموضوعات الثانوية وثيقة الصلة بالموضوع الاصلى موضحة لبعض الجوانب النفسية أو الاخلاقية لابطال المسرحية ٠ أما عن وحدتى الزمان والمكان فقد تحطمتا في المسرحية ولا ضير فى ذلك اطلاقا ، وانما الضير فى تفكك المسرحية نتيجة ذلك وهذا لم يحدث فى المسرحية ولكن المهم هو ان تنتهى المأساة نهاية طبيعية بانتحار البطلين ، فما الحكمة فى ان تصحب تلك الخاتمة المؤثرة خاتمة أخرى سعيدة هى زواج هيلانه من حابى وانطلاقهما الى حياة سعيدة ؟ اخشى أن يكون فى ذلك ما يبلبل احساس المشاهد ٠

ـ الحق ان الاتجاه الاصيل فى المسرح الكلاسيكى ، بل وفى غيره ، ان تنتهى التراجيديا بخاتمة محزنة كما تنتهى الكوميديا بخاتمة مضحكة أو سـارة ، ولكن هذه القاعدة غير مطلقة ففى الكثير من كوميديات موليير تأتي الخاتمة محزنة وان يكن من النادر الا تنتهى التراجيديا بمأسـاة . وربما أدت هذه المحاولة الى تخفيف قوة الانفعالات .

ـ من الاصول المتفق عليها مبدأ فصـل الانواع بمعنى ان التراجيديا يجب أن تكون أحداثها مأساة متتابعة الحلقات لا يتخللها أى مشهد مضحك ولا أية فكاهة ، كما أن الكوميديا يجب أن تكون مهزلة خالصة لا تجرى المأساة فى أى عرق من عروقها ، والحق ان الرومانسية سخرت من هذه القاعدة مستشهدة بمآسى شكسبير التى لا تخلو من مناظر ضاحكة ومن شخصيات هزلية رائعة ، وقد وجدت فى هذه المسرحية مثل ذلك ، وكانت فلسفة شكسبير والرومانتيكيين فى هذا الخلط تقوم على ان المسرح عرض للحياة وما دامت الحياة لا تتورع عن ان تجمع بين المضحك والمبكى فليس هناك مايدعو المسرح الى ذلك التورع ، والحجة سـليمة ولكن هناك فرقا بين مضحكات شكسبير وبين « انشو » فى مصرع كليوباترا ، فالمهرج «اوفولستاف» عند شكسبير فيلسوف لاذع تقطر سخريته أسى ، أما هنا فالفكاهة لفظية .

ـ الحقيقة انى لم أقم بذلك ، الا مجاراة للروح المصرية المولعة بالنكتة المصرية والمرح الخفيف ، وان كان لشخصية « انشو » دور هام فى تخفيف حدة التوتر المستمرة فى المسرحية .

ـ انك شاعر غنائى لم تسـتطع أن تتخلص من غنائيتك ، والواقع أن المصريين شعب طروب بفطرته أو محب للغناء ، وأنت طموح الى ارضاء الجمهور ، ونحن نعرف الى أى حد بلغ المسرح

الغنائى فى مصر عند سلامة حجازى وسيد درويش • وليت عندنا من الموسيقيين من يستطيعون تلحين المسرحية تلحينا كاملا ، على نحو ما فعل « ماسنيه » الموسيقى الكبير عندما لحن سنة ١٩١٩ مأساة غنائية عن كليو باترا • وعبد الوهاب يستطيع تلحين بعض المقطوعات الغنائية فى المسرحية ، ومن المؤكد انها سوف تلقى نجاحا عظيما ولكن لو أنها لحنت ومثلت كأوبرا لنجحت أكبر النجاح أما الآن فان هذه المقطوعات الغنائية رغم نجاحها ، فانها دخيلة أحيانا على بناء المسرحية ، غير مجدية فى سير الاحداث وتطورها (١) •

– هذا صحيح ، فكثيرا ما نظمت القطعة بنفس الصورة المعروفة فى الشعر الغنائى ، ثم قمت بتوزيعها على المتحاورين وقد يزاد هنا أو يضاف هناك (٢) •

– الذى أخشاه أن يكون ذلك قد أدى الى أن تفقد الشخصيات كثيرا من حيويتها ، وهى تتكلم بشكل خطابى يقص أكثر مما يمثل ، فالاسترسال الغنائى يفكك الشخصية ، فهى لا تتضح بطول الحوار وانما تتضح بالصراع أولا :

– ان الصراع موجود فى المسرحية بين أنطونيو واكتافيو على سبيل المثال •

– ان مناظر الصراع الحسى موجودة ، ولكن الصراع النفسى هو المقصود ، وهو لا ينعدم ولكنه لا يتضح تماما ، ومن أجل ذلك فان الشخصيات بسيطة التركيب قليلة التعقيد •

– يا أخى ان شخصية كليو باترا على سبيل المثال أيضا واضحة تماما فى قوتها وخطها الوطنى •

---

(١) راجع مسرحيات شوقى لمندور ص ١٦/ ٢٠ •
(٢) شوقى شاعر العصر الحديث لشوقى ضيف ص ٧١ •

- هذا صحيح ولكن الشخصية تحيا بنواحي الضعف كما تحيا بنواحي القوة وربما كان تحليل نواحي الضعف أكثر قدرة على احيائها واكسابها أبعادا انسانية ، ومن هنا كانت الشخصيات الثانوية أكثر وضوحا فلا شك أن شخصية هيلانة متكاملة (١) ٠

- ربما ٠

- بل هذا صحيح ، فشكسبير قد قرر لمسرحيته عالما منسجما يدور حول فكرة وفلسفة واحدة هو الهوى والتضحية فى سبيله ، لم يختلف فى ذلك انطونيو أو كليوباترا ، وبذلك وضع لها قاعدة تتصل بنفوس الناس وتهوى الى أعماقهم ، وصور الموضوع تصويرا انسانيا شمل الكون ٠ فانطونيو يضحى بمجده وهو يعلم بضعفه ويهجر اكتافيا الى كليوباترا وهو يعلم ان ذلك سيثير عليه سخط الرومان ، وتظهر كليوباترا بمظهر المرأة التى تجمع فى ذاتها حواء المعقدة الغامضة ٠ وواضح انك جعلت كليوباترا متعددة الجوانب ، ولكنك ابقيت الصفات الطيبة وحدها والانسان مزيج من الخير والشر ٠

- قلت ربما

- ان هذه الملاحظات لا تنقص من قيمة المسرحية كثيرا فهى فتح جديد فى الأدب العربى ونجاحها أكيد ٠

- لو نجحت النجاح الذى تتوقعه ، فسوف يدفعنى ذلك الى مزيد من العمل فى مجال المسرح ٠

- وماذا تنوى ان تعمل ؟

- أمامى من التاريخ العربى « مجنون ليلى » و « عنترة » ٠

---

(١) المسرحية فى شعر شوقى لمحمود حامد شوكت ص ٤٤ ٠

ـ هل قرأت « روميو وجولييت » لشكسبير ؟

ـ نعم • ولعل هذا ما يدفعني الى كتابة هذه المسرحية ، كما شاهدت فى باريس مسرحية شكرى غانم الاديب اللبنانى عن عنترة ، وقد كتبها بالفرنسية ومثلت هناك ولكنها لم تعجبنى وان كانت قد لفتت نظرى الى الموضوع الذى ينبغى أن تعاد كتابته من جديد •

ـ الحقيقة انك موفق فى هذا الاختيار لانهما شاعران ومن أجل ذلك فسيندمج الغناء فى القالب المسرحى نفسه ، دون أن يظهر بارزا يعوق سير المسرحية •

ـ وعندما كنت فى باريس عام ١٨٩٠ شاهدت «سارة برنرد» تمثل دور جان دارك ومازالت تلح على فكرة كتابة جان دارك مصرية ، هى « ناتيتاس » بطلة قمبيز التى أفكر فى كتابتها من التاريخ المصرى القديم وانت تعرف اننى أستطيع الكتابة فى أكثر من مسرحية فى وقت واحد دون أن يؤدى ذلك الى خلل فى واحدة ، أو اضطراب فى أخرى •

ـ ولماذا لا تفكر فى مسرحيتك القديمة « على بك الكبير » ؟

ـ انها جديرة بالتفكير فعلا •

ـ ولكنى أتيساءل عن قيمة الصياغة الشعرية فى مثل هـذه المسرحية ، فهى حديثة تحتاج الى صياغة تقربها من الواقع ولغـة الواقع هى النثر •

ـ اذا كان المقصود من المسرحية نقل الواقع كما هو ، فان آلة التصوير أقدر من الكاتب المسرحى ولكنى أرى الشعر وسيلة ناجحة للتصوير العاطفى خاصة فى المسرحيات التاريخية والفن على العموم يجذب حواسنا بما يلون به الواقع من الخيال والشعر أقدر على ذلك من النثر •

ـ ولكن للشعر قيودا قد تحد من حرية المؤلف المسرحى •

ـ هذا صحيح • وربما كتبت مسرحية نثرية لأن حياتى فى الاندلس سنوات أيام النفى جعلتنى أعيش واقع الاندلسيين وتاريخهم ، وقد جمعت مادة عن المعتمد بن عباد تصلح لمثل هذه المسرحية •

ـ ولماذا تفكر فى المآسى دائما ؟ لماذا لا تحاول كتابة ملهاة ؟

ـ ان الضحك له مغزاه الاخلاقى والاجتماعى لانه يعالج بعض عيوب المجتمع ، وفى حياتنا عيوب تستحق أن تعالج بالسخرية والضحك فعلا ، مثل البخل ومثل المرأة المزواج العجوز التى يطمع فيها الشاب من أجل مالها ولكنها حريصة كل الحرص على ألا تفقده فتفقد قيمتها نفسها فى أعين المتطلعين اليها • وملاحظتك جديرة بالالتفات فعلا ، ان كان فى العمر بقية •

ـ أبقاك الله وقواك •

وعندما ارتفعت الستار عن المنظر الاول من المسرحية ، أحس بقلق غامض فهو موقف جديد عليه على الرغم من حضوره التجارب أكثر من مرة ، ولفته أنظار الممثلين الى اخطائهم ورضاه عن قدرتهم ••• ودخل « ديون » فرحا يبلغ حابى احساسه بالنصر :

يومنا فى اكتيوما	يومه فى الارض سار
اسألوا اسطول روما	هل اذقناه الدمار
احرز الاسطول نصرا	هز اعطاف الديار
شرفا اسطول مصرا	حزت غايات الفخار
صارت الاسكندرية	هى فى البحر المنار
ولها تاج البرية	ولها عرش البحار

وأحس الجمهور بشيء من الحماسة وهو يرى أمله يتحقق على المسرح ، فضج بالتصفيق وأحس الشاعر بالطمأنينة تسرى الى فؤاده وبلذة النجاح فى هذا العمل الكبير ، فتابع المسرحية بشوق كأنما يشهدها لاول مرة حتى اذا ما أسدل الستار ، شعر شعور الوالد يعرف روعة الابوة للمرة الاولى ٠

الباب الخامس

اللحن الباكى

دموع البلبل

شـــيعت احلامى بقلب باك ولمت من طرق الملاح شـباكى
ورجعت ادراج الشباب ووده امشى مكانهما على الاشـواك
وبجـانبى واه كان خفـــوقه لمـــا تلفت جهشـــــة المتباكى
كنا اذا صفقت نستبق الهوى ونشد شد العصبة الفتـــاك
واليوم تبعث فى حـين تهزنى ما يبعث الناقوس فى النســاك

كان دائم الترديد لهذه الأبيات التى يبكى فيها القلب وتجمد العين ، وهو عذاب يحسه يتسرب الى أعمـــــاقه بعد أن أشرف على الستين وعاش حياة عريضة خصبة انتزع كأسه فيها من اللذات حتى اذا جفت الكأس ولم يعد قادرا على ان يملأها ، هم بتحطيمها على شفتيه . وماذا يبغى من الحياة اليوم بعد ان افلتت من بين ذراعيه الواهيتين أو كادت . ان صديقه « شكيب ارسلان » يعجب لهذا الهرم الذى أسرع اليه اسراعا قبل غيره (١) ، يعجب لهذه الانحناءه التى كادت تثقل ظهره ، لولا بقية من العافية لم تستنفد يتكىء اليها ، ويعجب لهذه الغضون التى ملأت جبينه كأنها خطوات الأيام على درب الحياة ويراه زكى مبارك أشبه بالقديسين فى هذا الشحوب الذى اعتراه وذاك الشيب الذى غـزا حاجبيــه وشاربه بعد أن انتهى من فوديه ، وتلك الخطوات الوانيـــة التى يسير بها (٢) . ولكن الأصدقاء قد نسوا أن الماضى العـــابث المهلك

---

(١) شوقى أو صداقة اربعين سنة ص ٩٤

(٢) ابولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٧٠

للعافية السالب للقوة حتى في ابان الشباب وعنفوانه قد غفل طويلا ، فهل يغفل الى مالا نهاية عن الشيخ الذى يأكل كما يأكل الشباب ويسهر أكثر مما يسهر الشباب ويجول كما يجول الشباب وهل تجدى مقويات الأدوية فى دفع الماضى عن أن يفعل فعله بهذه الانسجة العتيقة وتلك الأعصاب المرضوضة المتوترة دائما ؟ كلا ، فقد استيقظ الماضى ليهزم الحاضر ويثبت وجوده .

لقد كانت ليلة قاسية ، فقد كان الألم لا يحتمل ، ومر بخاطره شبح الموت رهيبا قاسيا ، ولكن الله فرج الأزمة ، وقد طمأنه الطبيب ولكنه لم يطمئن ، ان اخشى ما يخشاه ان يكون المرض تصلبا فى الشرايين ويلح الماضى المنتقم على هـــذا الجسـد الواهن . واذا كان الألم قد زال ، فان آلامه كثيرة لا تنتهى بعد أن ترك التدخين وترك الشراب وترك القهوة وسجن فى حجرته . ولكن العجيب ان يبقى ذهنه شابا متوقد النشاط لم تنل العلة منه ، فليس أمامه الا أن ينكب انكبابا على القراءة والنظم لينسى مرضه فى هذين .

لقد عرف سهر المنازل التى لم يألف السهر فيها قط ، لم يعد يقوى على التنقل بين المقاهى والأماكن المطروقة من غرباء لا يعرف بعضهم بعضا ، حتى يوشك الفجر على البزوغ ، فليس أمامه الا دار اسماعيل شيرين فهى من تلك الدور التى ألفت غشيان الأدباء والظرفاء من عهد بعيد ، كانت منتدى من تلك المنتديات التى عرفتها القاهرة لأجدادنا الذين لم يعرفوا مشارب القهوات ونوادى السمر المفتوحة للهو ، ولا صـــالات الرقص ولا بارات الشراب ، وانما كانوا يتزاورون فى بيوتهم . واغلقت البيوت أبوابها ، بعد ان هجرها الناس الى الاماكن العامة الا بيت اسماعيل شيرين الذى حافظ على هذا الطراز القديم فى التزاور، فهى تستقبل فلولا من الذين يحنون الى هذا السمر .

ودخل عليه كاتبه « أحمد عبد الوهاب أبو العز » وبيده كتاب « المختصر من مكاشفة القلوب للغزالى » و « صحيح البخارى » ، أنه يعرف كم أصبح مولعا بكتب التصوف عموما والقرآن والحديث خصوصا ، فابتسم ابتسامة هادئة وطلب اليه ان يقرأ في الكتاب الأول . حتى اذا انتهى الى وفاة الرسول لم يملك نفسه فأخذ يبكى ، وبكى كاتبه معه تأثرا ، وما هى الا لحظات حتى بلغهما نعى والد كاتبه .

ياللشيخ العظيم المسكين ، شوقى الذى كان لا يزور سرادق الأموات أبدا ولا يعرفها ، ولم يطرقها للمجاملة ولو كانت لأصدق الأصدقاء وأعظم العظماء ، يذهب الى سرادق متواضع فى حى السيدة زينب ، ينتظر فى ركن فيه ساهما ساكنا ، يتغير القراء فى تلاوتهم للقرآن ، وتنفض جماعة وتدخل أخرى وهو جالس فى هذا السرادق الذى تفوح منه رائحة الموت ، وهو الذى يهرب من أحاديث الموت . أنه المرض وثقله وشبحه المقيت الذى يرفع يده فى الظلام ويشير الى الموت ليقترب ، وهو الذى جعله يقف فى حديقة داره الواسعة يتمل تلك المساحة ويقيسها فيخطىء فى التقدير فيسأل كتابه :

ـ هل تستطيع أن تذكر لى مساحة القبر ؟

ـ لا قدر الله ، اظنها عشرين مترا .

ـ وما مقدار مساحة حديقتنا ؟

ـ اظنها ثلاثة آلاف متر .

ـ قسمها على عشرين .

ـ تساوى مائة وخمسين .

ـ سبحان الله .. ان ثلاثة آلاف متر لا تكفينا فنفكر فى ضم قطعة الأرض الفضاء المجاورة وعشرين مترا فيها أعظم الكفاية لتضم العظام ما ابعد طمع الانسان !! وسكت هنيهة ثم استطرد قائلا : لقد اوصيت الجميع بك خيرا فكن مطمئنا ، ولكن مازلت أفكر فيما يضمن لك تربية أبنائك فى المستقبل . وان عشت قمت لك بتكاليف الحج وان كان غير ذلك فسيقوم ولدى على بذلك عنى فلا تنس الفاتحة لى بأرض الحجاز . وشكره كاتبـــه ثم انصرف ، ودخل هو الى فراشه لينام ، ولكن النوم جفاه ، ومرت به صور اجفل لها ، ما ابشع الموت وما اقساه نهاية للحياة ، ان البحث عن الخلود مشكلة الانسان الأولى فمنذ العصور البدائية والانسان يفكر فى هزيمة الموت ، تارة عن طـريق الاســطورة ، ايزيس وأوزوريس ، الربيع المتجدد الخالد ، وطورا عن طريق الفلســفة وتناسخ الارواح حتى اذا دهمته الحقيقة المرة في عصر الحضارة، لم يبق أمامه الا خلود الذكر والأثر والتاريخ . أما ان ننتهب الحياة لأنها قصيرة فنزيد فى قصرها ، أو نعتزلها فنزيد فى طولها ، فتلك فلسفة قصيرة النظر . وكأنما ارتاح الى هذه النتيجة فارعوى الوسن ثم اغفى .

عقدة الخوف

ـ لقد فحصت اباك بالأمس ياحسين ، ووجدت الوهم يسيطر عليه أكثر مما يسيطر عليه المرض ، وذلك هو السر البعيد وراء كثير من الظواهر المتناقضة في تصرفاته ، تلك التى تبدو للمحيطين به شهاذة فيفسرونها بأن الرجل ذا شخصية مزدوجة . ألم يقل الدكتور محمد حسين هيكل انك أمام رجلين مختلفين جد الاختلاف لا صلة بين أحدهما والآخر ؟ أحدهما مؤمن عامر النفس بالايمان والآخر رجل دنيا يرى فى المتاع بالحياة ونعيمها خير آمال الحياة . وأنت لا تشعر فى أى الحالين بضعف نفسانى دفع به الى لبوس روح غير روحه .

ـ ولكن هذا يكاد يبدو صحيحا فأنت تراه فى الحياة اللاهية فتحس أنه ينغمس فى ملاذ دنياه ولا يعيش الا من أجلها ، ولعل هذا واضح فى شعره مثل قصيدته « حف كأسها الحبب » ثم تراه فى مواقف أخرى وقد استبد به الشعور الدينى فقد عنفنى مرة فى غضب شديد ـ وكنت صغيرا ـ لأنى مسست دون قصد جانبا من جوانب الدين على حبه الشديد لى ، وعندما عدنا من المنفى وجدنا منزلنا سليما لم يمس بسوء فارجع ذلك الى بركة لوحة معلقة على المدخل مكتوب عليها « لا اله الا الله محمد رسول الله » وشعره ناطق بهذه المشاعر العميقة وعلى الأخص فى مدائحه النبوية ففيها الضراعة والندم . وحتى في لذته فان ضميره الدينى لا يدعه يهنأ باللذة الخالصة فعندما يقول « رمضان ولى هاتها ياساقى » ، « ما كان أكثره على الافها » يقول « واقله فى طاعة الخلاق » .

ـ أنه يخاف الله بدلا من ان يحبه ، ويخاف فقدان اللذات فيفنى فيها ، ولو احب الله بدلا من ان يخافه لاحب الحياة بدلا من ان يخاف فقدانها ، وأنت اذا خفت فقدان غانية تفانيت حتى امللت ففقدتها ولكنك لو احببتها لاحتفظت بها أطول مدة دون اسراف • من أجل ذلك خاف الموت وكره أن يتحدث عنه في مجالسه كما كره أن يتحدث غيره عنه أمامه ، ونحن نعلم هذا فنتحاشى ذكره فى وجوده ، فلا ننعى ميتا ولا نخوض فى حديث الموت ولا فلسفته ولا فى أية ناحية من نواحيه ، وتستطيع أن تتبين حيرته الدائرة فى الخوف من الموت بكل مراثيه ونحن نذكر له دائما قصيدته فى رثاء « رياض » والاستفهامات المتلاحقة التى تنبىء عن فزع شديد •

سألتك ما المنية أى كأس ... وكيف مذاقها ومن السقاة

وماذا يوجس الانسان منها ... اذا غصت بعلقمها اللهاة

وهل تقع النفوس على أمان ... كما وقعت على الحرم القطاة

ـ هذا حق ولعله سبب تشاؤمه وتفاؤله فى كثير من الاحيان، فهو يستبشر خيرا اذا سمع ثناء على صحته ، وقد عرف « محفوظ » عنه هذا ، فاذا عاده مريضا فى داره أو سمعه يشكو وجعا في مكتبه أسرع قائلا : والله ان وجهك ينبىء عن صحة وشباب ، فيطير فرحا ويلتفت الى والى أخى على ويقول : أما فيكما من يقول لى مثل هذا ، ويسر بقية يومه . واذا اخطأ احمق وصدقه القول فى شحوب وجهه وأثر علته فالويل له وعليه اللعنة . حدث ان قريبا لنا عاده يوما وكان ملازما للفراش ، فلما دخل اليه صاح فى لهفة وكان جهورى الصوت : مسكين ياعمى سلامتك . فما كاد يسمع هذا الصائح حتى أخذته رعدة وانتفض من الغضب وصاح فيه : اخرج ، اخرج ، أنا عمك من أين ، ياحمار،

وكرر هذا مرارا . ولم يكن هذا العائد طفلا بل كان موظفا له مكانة مرموقة . واذا فاه أحد جلسائه بكلمة تحمل معنى الشؤم، وجم ، وقطع حديثه وترك المجلس . ويذكر « محفوظ » أنه لقيه مرة أمام دار السينما ، وكان مستغرقا فى قراءة اعلان الرواية فباغته بالتحية فما كاد يسمعها حتى ارتعد وخاف وزجره قائلا : يا أخى أنا ظننتك فوضويا قاتلا يريد بى شرا . فقال محفوظ : وهل القاتل يحيى مقتوله قبل القتل ؟ فتشاءم وتركه مسرعا .

ـ ثم هرب من الخوف الى الخوف ، فعندما خاف الموت أكثر من التفكير فيه وحيدا ، فأصبحت الوحدة نفسها مخيفة فهرب منها . من كان يظن ان شوقى يحضر العزاء فى وفاة والد كاتبه ثم يخرج ثم يعود كل ذلك من أجل أن يصطحب كاتبه معه ، فلا يشعر بالوحدة ؟

ـ وهل خوفه الدائم من المرض يرجع الى ذلك أيضا ؟ فأنت تعرف أنه يتعاطى الدواء حتى ولو لم يكن مريضا ، فى صورة اقراص وسوائل ، متوهما ان هــذا عــدة لدفع الأمراض التى يخشاها ، واذا جلست معه الى المائدة وجــدت زجاجة اليود موضوعة والى جوارها كوبة فارغة ، فاذا جاء الى منتصف طعامه افرغ قليلا من الماء ومزجه بخمس نقاط من اليــــود وشرب ذلك جميعا ، ثم شرب سيجارة وادعى ان فى هذا تطهيرا للحلق من الميكروب الذى ربما يعلق ببعض طعامه أثناء تناوله ، ثم اســـتأنف تناول الطعام . وتذكر حين استدعاك مرة ، يوم كان معه كاتبه يملى عليه أبياتا فاحتاج الى دواء فى لون الماء لشربه ، فطلب من كاتبه أن يحضره له ، فأخطأ الكاتب واحضر زجاجة البوريك لأن غرفته تشبه صيدلية لكثرة الادوية المنتشرة فوق الرفوف فما كاد يعب منها قليلا حتى أحس بالبوريك فتفله مرتاعا وصاح بالكاتب مهددا متوعدا وقد ظهر عليه هول الموت فما كان من الكاتب المسكين الا أن عمد الى الزجاجة فأفرغها كلها فى جوفه رعبا منه ليموتا

معا فى زعمه ، ولكنك هونت عليه الأمر حين ذكرت ان البوريك مطهر ولا ضرر منه .

وأنت تعرف أنه يلبس الصوف شتاء وصيفا ، يلبسه خفيفا في الصيف ثقيلا فى الشتاء ، وينتقل بالجورب فى قدميه داخل البيت لم يتركه قط فى نوم ولا يقظة ، ويخاف البرد خوفا قاتلا ، ويتقى حتى نسمات الخريف . فكنا اذا جلسنا فى الحديقة معا حتى فى أكتوبر وهبت رياح الخريف فى بواكيرها ، هب واقفا وهو يقول : هيا الى الداخل ، فاذا احتججنا بأن الطقس لطيف قال : من اللطيف يخاف على كل حال . ثم هو يزورك فى العيادة أو يستدعيك بالمنزل صباحا ومساء دون مرض ولكن ليطمئن قلبه . حتى سجائره يدخنها فى مبسم ذى أنبوب يغسل دائما بالكحول ، وله عدة مباسم ، يأمر بتنظيفها دائما خشية الميكروب وخوف العدوى ، وما صافحه انسان الا وكانت له فى هذا الشأن تصرفات تخجلنا أحيانا . حدث مرة أن اصبت فى حادث سيارة وجاء « محفوظ » لزيارتى ، فلما صعد الى الغرفة استوقفه أبى على بابها ، وأمر بزجاجة « كولونيا » صبها كلها على رأسه وثيابه، فلما احتج غاضبا وهو يقول : انى لست قذرا ولا حامل عدوى، سمعته يقول وهو يضحك : هذا شأنى مع كل من يزور مريضا عندى . فأجابه محفوظ : ولكن هذا يكلفك كثيرا ، وينفر عواد مرضاك ، قال : لا يهم مادمت استريح الى ارضاء هواجسى فى دفع العدوى .

— الحقيقة انى اعزو هذا الى ماضيه البعيد ، يوم كان فى فرنسا ، فأنت تعرف أنه أصيب بالكوليرا وأشرف على الموت ولو كان هذا الحرص ملازما له فى تلك الأيام ما أصيب بالكوليرا فعندما استقر في عقله الباطن ان الأهمال فى النظافة قد يودى بحياة الانسان جن بها جنونا ، وحاول ان يتقى المرض بكل

وسيلة . ولا شك ان الخوف انطلق من قمقم فى نفسه فطبع جوانب حياته .

ـ هذا حق فهو يفزع فزعا شديدا من النفى مثلا بعد ان مر بتجربته القاسية فقد عرفه محفوظ بعد عودته من المنفى بشهر واحد ، ثم تأكدت المودة تأكدا متينا وقد كان « محفوظ » مفتونا بصحبته سعيدا فأراد أن يظهر هذا الافتنان وتلك السعادة وذلك الفخر ، فاعتزم أن ينظم قصيدة تشمل حياته كلها ، فلما أتم قصيدته وكانت تتضمن تاريخ حياته كلها وبلغ عدد أبياتها مائة وعشرين بيتا ، حملها الى رجل أديب هو « محمد صدقى » فقال الرجل : انى أود اقامة حفل بهذه المناسبة تلقى فيه قصيدتك تكريما لشوقى ، فقال محفوظ : انى لم أعلمه بهذا ، واحب ان يكون مفاجأة له ، فضحك الرجل قائلا : اتكرم رجلا مقيما بمصر فى حفل يغيب عنه ؟ فخجل محفوظ وعزم على ان يبلغ أبى ، وحمل القصيدة وتوجه بها الى « جروبى » حيث كان يجلس بين جماعة من العلماء والوجهاء واصحاب الاعمال : فلما ابصره أبى دعاه الى الجلوس وسأله عن الاوراق التى يحملها ، فقال : هذه قصيدة نظمتها فى تاريخ حياتك ، وأنا الآن راجع من بيت « محمد صدقى » ، وقد اتفقنا على ان نكرمك فى حفل مشهود ، وأنا حاضر الآن للاتفاق على تشريفك الحفل . فاذا به يتحول من رجل باسم ظريف ، الى نمر غاضب وصاح فى رعب عاصف وبصوت مرتفع قرع كل اسماع الجلوس : أنت تريد ان ترجعنى الى المنفى ، أنت مدسوس على من الانجليز ، سأبلغ الشرطة فوجم محفوظ واصابه شلل عطل لسانه وتفكيره وشمل كل حواسه واحدقت به العيون المتطفلة الفاحصة ، ودار الهمس بينهم وأصبح لا يستطيع البقاء ولا يستطيع الانصراف ووقع فى بلاء عظيم ، وبعد فترة رجع الى نفسه الجريح فقال : أهذا جزائى ؟ شكرا ، ثم

انصرف تشيعه العيون الهازئة . فلما كان فى الشارع أبصر صاحبا كان يجالس الجماعة ، يجرى وراءه ثم امسك به وهو يقول : يا شيخ ، لا تغضب ، انه متأسف . فصب عليه محفوظ غضبه المكتوم فى قذائف كلها سباب . وانصرف الى بيته وهو فى أسوأ حال من الخجل والاضطراب . حتى اذا كان مساء اليوم نفسه طرق بابه طارق ، فلم ينصرف خاطر « محفوظ » اليه قط فقد باعد الغضب بينه وبينه ، فلما بلغ الحديقة الفاه وقد أخذ بعروة سترته العليا كعادته وهو يرفع عينيه الى تعريشة استراحت عليها الكروم . فلما ابصر به قال : يبدو ان هذا العنب من النوع الممتاز ، اذهب فالبس وأنا منتظرك هنا ، ثم اركبه سيارته ، فرأى محفوظ فى زيارته له ترضية كافية .

– ومن العجيب أنه كان كريما فى شبابه بل متلافا ، ولكن انتشار الخوف من داخل القمقم في شيخوخته جعله يخاف الفقر أيضا ، فقد رأيت العفاة والقصاد يتجمعون عليه مرة فاعتذر اليهم وهو غاضب ، ثم التفت الى قائلا : لو اعطيت كل انسان كل يوم، لأصبحت محتاجا استجدى . ولكنه والحق يقال ما زال سمحا اذا تحقق من نازلة نزلت بصديق أو محتاج . فقد بعث اليه مرة الشاعر العراقى الكفيف عبد المحسن الكاظمى بكتاب يشكو فيه فقرا ومرضا طرحه الفراش ، فلما تحقق من الأمر ، بعث اليه قدرا طيبا من المال . وقد ذكر لى « محفوظ » انه كان فى ضائقة مالية يوم وفاة أبيه وقد لاح الضيق بوجهه فادرك حين رآه حاجته ، فلم يشأ ان يحرجه أو يؤلمه حين يقدم اليه هبة ، فتلطف وقدم له مالا دعاه قرضا . وحاول محفوظ بعد ذلك أن يرده اليه فأبى أن يأخذه وقال له : أنت ابنى ، فليس لك ان ترد مالا تأخذه من رجل كأبيك ، وكثيرا ما رأيته يعطى بعض الأدباء .

– غير أنه برغم هذا ، جرىء جرأة نادرة فى أدبه ، شعره

ونثره . فعندما وصلت « أم المحسنين » وتجمعت الشرطة لتفريق المرحبين بها بايعاز من الملك قال فى قصيدته :

برىء الرفق من السيف الذى　　　منــــع الأم ملاقاة البنـــين

ولم تعوزه الشجاعة حين قال فى رثائها مشيرا الى شماتة الملك ، وقرب شماتة الناس به :

واسخرى من شانىء أو شامت　　　ليس بالمخطىء يوم الشــامتين

وقد كان أخى على فى أول عهده بالوظائف بعمل فى وزارة المعارف ، وقد التحق بالوظيفة بعد عناء شديد ، لأن الملك كان معارضا فى تعيين ابن شوقى ، ثم سعى له طاهر حقى فى الالتحاق بوزارة الخارجية ، وحدث بين السعى وبين اتمامه ، ان أبى زار حديقة الحيوان ورأى الأسد فى القفص ، وأراد ان يكتب مقالا حوله ، فلما كان المساء جاء طاهر حقى وجلسنا نتحدث فى أمر هذا المقال ، فقال طاهر : ان الملك سيحسب أنه المقصود بالأسد الحبيس وأنه تعريض خفى ، ولهذا اخشى ان تخفق مسألة وزارة الخارجية ، وقررنا ان نكلمه فى الموضوع ، لأن حذف مقــال من انتاجه لن يضره . فلما حضر دعا « محفوظ » ليملى عليه المقال، وبدأ محفوظ يكتب :

« ياجار الجيزة وأسير الحديقة ، سرت هموم فلم تنم ، ارقتنى شجون وشجون وذكريات مما تركت السنون ، وأرقك حز القيد ، وضغط الحديد ، واثارك ذكرى الصيد ، والحنين للبيد ، سبحان المعز بالحرية المذل بالرق ، ما أرقك بالأســحار ، وكان غطيطك أرق الصحار ، وفرق السمار ، ما بال زئيرك ينام عليــه الطير ملء جفونه ، ولا يتحرك له ليل الجيزة من سكونه ، أصــبح أقل من النجاح واذل من النباح ، وكان بالامس يرعد البطاح . وأين إبالبدة طلعة كانت تعقل الفرس والفارس ، فأصبحت يدعو

العيون اليها الحارس يطيف بها النشأ ولا تخفيف الرشأ ...
وما اسفى والله على ظفرك المقلوم ولا على نابك المحطوم ، فانى وجدت البغى ليس يدوم ، وانما اسفى أبا الاشبال على تلك الشخصية المتظاهرة وتلك الروحية القاهرة .. فاسترحت من الرأى وصراحته ، والفكر وشجاعته ، والمبدأ وصلابته ، وكفيت سيوفا بينا هى لك ، اذا هى عليك ، واقلاما مأجورها أسيرك ، وطليقها أنت أسيره » .

وحاولنا جهدنا ان نقنعه بوجهة نظرنا ، فلم يقبل مهما كانت العواقب ، ونظر الى محفوظ الذى توقف فنهره ، فقال محفوظ : لم تقدر على الحمار ، قدرت على البردعة ، فضحكنا .

— ومن أجل ذلك يخاف الصحافة ويجزع من النقد جزعا شديدا ، فلا يطيق ان يقرأ سطرا واحدا في الحط من شعره كما لو كان شعره هو عرضه ، ويغضب على من ينبهه الى نقد لشعره في صحيفة من الصحف ، على الرغم من حرصه على قراءة كل نقد وجده ، ولم يجزع يوما كما جزع يوم ظهور كتاب الديوان للعقاد .
هؤلاء الصحفيون أشبه بوحوش السرك ، اذا غفل شوقى عن أحدهم واسترخى ، وثب وثبة خدشه فيها بمقال مضاد فيثور ويسميها الصحافة الساقطة . وهو على عظم مكانته وعلى قدمه الراسخة فى الفن ، متعب منهوك لا يستقر عن الدوران بين دور الصحف ، فهو فى الاهرام والبلاغ والسياسة والاخبار والجهاد .
كذلك مائدته لا ترفع أطباقها ولا يطوى غطاؤها فهى دائما محفوفة بالصحفيين وغيرهم ممن يخشى اقلامهم ويخاف نقدهم . وفى الحق أنه هو الذى صب على نفسه هذا البلاء ، فقد اغرى به جزعه الشديد من النقد كل هؤلاء ، عرفوا ضعفه فاستغلوه .
ولو تماسك واظهر قلة مبالاة بمدح أو بذم ، لسلم من كثير من الآلام النفسية ، التى كانت تعتريه حين يقرأ نقدا قاسيا ، فشعره غنى عن هؤلاء وأولئك ، ولكنها طبيعته ، أو قل انها عقدة الخوف .

النهاية

قد كنت أوثر ان تقول رثائى — يامنصف الموتى من الأحياء
لكن سبقت وكل طول سلامة — قدر وكل منية بقضاء
وأتيت صحراء الامام تذوب من — طول الحنين لساكن الصحراء
كم ضقت ذرعا بالحياة وكيدها — وهتفت بالشكوى من الضراء
فهلم فارق يأس نفسك ساعة — واطلع على الوادى شعاع رجاء

كان يخاف الموت ويفزع من حديثه ، فكيف قالها ؟ لقد فزع كل من قرأها ، ولكنه قالها يوم وفاة حافظ واتبعها بكلمة جرير يوم مات الفرزدق : « والله ان بقائى بعده لقليل » . وذهب الصيف الذى اخترم حافظا ثم اقبل الخريف الموحش بكآبته التى يرتجف منها الشجر حين يتعرى من أوراقه ، ويسرى حزن غامض الى الارواح المرهفة فتحس بانقباض ، كانت لا تحسه فى ليالى الصيف الرقيقة ، المليئة بالحركة وبالسمر . وكان يوم ١٣ أكتوبر عام ١٩٣٢ ، احس فيه بنشاط غير عادى ، وضحك فيه كما لم يضحك من قبل . انه يحتفظ بالحلوى دائما فى مكتبه ليستدرج بها حفيديه ، وهكذا أخذ يداعبهما وهو يردد : « أو تظنون أن هذين الشيطانين يجيئان لزيارتى لولاها ؟ بالله ما نفعهما فى ممازحة شيخ مهدم مثلى ؟ »

انه سعيد اليوم يحس أن أوصابه وآلامه قد انتهت ، فانهى هذه البشرى الى كاتبه ، وخرجا مساء اليوم لتناول العشاء وزيارة الاصدقاء . ثم أخذ يفكر فى وفد من شباب أعضاء جمعية القرش سألوه ان ينظم قصيدة فى أول نتاج المشروع ، ويستعد

للتائهم فى الغد ، فيحلم بالغد • وأحس بسعال ينتابه من أثر برد الليل ، فاستقل عربة الى داره المطلة على النيل الخالد الذى أحبه وتغنى به • وجاء الخادم فنضا عنه ثيابه ، وأرخى عليه الكلة فى فراشه ثم حيا وانصرف . وخفق البلبل خفقة ، ثم أخذته سنة متقطعة ، فلما كانت الساعة الثانية صباحا ، جاء ذلك الذى طالما ملأ قلبه رعبا ، فهب مذعورا ، ولكن الطارق أناخ على صـــدره ، وأخذ عليه أنفاسه ، فجمع كل ما تبقى له من قوة واهنة وقرع الجرس يدعو الخادم ليسعفه بالكافور ، عله يرخى من قبضته ذلك الآخذ بخناقة ، ولم يكن يدرى أنه الموت • وهرول الخادم ، ولكن البلبل المحتضر رأى شبح المنية يقهقه ، فاســـتدعاه مرة ثانية وقال فى كلمات متقطعة « لا تحضر شيئا ، فانها النهاية ، ولكن استدع السيدة والأبناء لأودعهم • »

وهبت السيدة الكريمة مذعورة على هول النبأ ، وأسرعت الى غرفة الزوج الذى لم تغاضبه يوما قط . فســمعت ذلك الشخير الذى يخرج بآخر أنفاس المحتضر ويدع العينين مفتوحتين والفم فاغـــرا فزعا ، فأغمضت العينين وأقفلت الفم وأســـندت الرأس الى القبلة ، ذلك الرأس الذى طاقت به معجزات الفن الخالد ، ومات شوقى ••

فى غمرة الاسى والدموع شيعت مصر أمير الشعراء الى مقر الأبدية ، فما انتصفت الساعة الخامسة من مساء ١٤ اكتوبر ١٩٣٢ ، حتى غص السرادق الفسيح الذى اقيم فى ناحية من ميدان التحرير أمام قصر النيل بفحول الأدب ورجال الصحافة وطلاب العلم • ثم وصل جثمان الشـــاعر على ســيارة فانتظم الموكب تتقدمه طلبة المدارس فى صفين على جانبى الطريق ، تتوسطهم الاعلام وقد ارتسمت عليها امارات الحدود ، وتبع الطلبة جنـــود الشرطة من راكبى الخيل ثم المشاة فنعش الفقيد محمولا على أعناق

أعضـــاء من جمعيتي « أبولو » و « رابطة الأدب الحـديث » فطلاب الجامعتين المصرية والأمريكية . وسار خلف النعش نجلا الفقيـــد فوزير المعارف مندوبا عن الحكومة فجمع من الصحفيين والشـعراء والأدباء وأعضاء الجمعيات العلمية والخيرية ، فكثير من اساتذة الجامعة والمدارس ، فالطلاب والتجار والعمال .

واجتاز موكب الجنازة شارع قصر النيل بين صفين من جموع الشعب المحتشدة ، وتضاعف عدد المشيعين فى أثناء الطريق، وكان المصورون قد تخللوا هذا الشارع ، فأخذوا فى التقاط منظر المشهد الذى تمثل فيه حزن مصر وحزن الوطن العربى . ثم وصل الموكب قبالة جامع الكخيا قرب ميدان الأوبرا ، حيث أديت صلاة الجنازة . ولما جئ بالجثمان ، التف بالنعش طلاب الجامعـة وهتفوا « فى ذمة الله يا أمير الشعراء » وكان كثير من الشعب قد سبق الى مدفن الأسرة ، فلما وصل الجثمان امتلأ الجو بالهتاف، وتقدم فريق من الطلبة وبعض الرياضيين فحملوا النعش الى مقر اللحد ، فدبت لوعة الاسى فى قلوب الحاضرين وكأنهم لم يعلموا الا هذه اللحظة أن مصر فقدت أمير بيانها وشعرها ، فما شهدوا الجثمان محمولا الى مقره الأخير ، حتى علت الاصوات بكاء ونحيبا تتخللها عبارات حبسها الحزن ودفعت بها حرارة الألم .

وفيما كان العمال يودعون الفقيد لحده ، وبينا جموع الشعب تتنفس تحسرا وألما ، علا صوت أديب فاضت عيناه بالدموع «الى أين يا أبا الشعر والحكمة » فحركت هذهالكلمة ساكن الاحزان ، فامتلأ المساء الشاحب بالانين والتوجع ، حتى وجد الناس أنفسهم فى مناحة استفحل فيها الخطب وعز فيها العزاء ، وكانت الشمس قد آذنت بالغروب (١) .

---

(١) البلاغ فى ١٥ اكتوبر ١٩٣٢ .

وطلعت الصحف سوداء حزينة ، فى يوم حزين لم تطرب فيه نفس . وتوالت طبعات الصحف فى مصر ، فى لبنان ، في سوريا ، فى الاردن ، فى السودان ، فى العراق فى لندن وفى باريس تنعى أمير الشعراء وتمتلىء برسوم الجنازة ، وتتساءل عمن كان يملأ الدنيا حياة . كيف غاله العدم ؟ وتوالت قصائد الشعراء الذين فقـدوا رائدهم ، فاعترف الزهاوى والرصافى بامارته ، وما كانا فى حاجة الى الاعتراف ، وفى كل بقعة من أرجاء الوطن العربى هتف الشعراء باسمه ، أو رددوا أبياته الخالدة فى الرثاء :

أخ كان يملأ أمس الهـواء	**ويحيا الحياة ويجرى العمر**
نزيل لعمـرى غـريب الفطاء	**غريب الوطاء غريب الحجـر**
يزأر كثيرا فدون الكثـير	**فغبافينسى كأن لـم يـزد**
تلفت وراءك اين الغـرور	**واين السرور واين الاثر**
فذق سنة لا ككل السـنات	**ونم ليلة ما لها من سـحر**
وقل للصديق طوينا الحديث	**وقل للعـدو دفنـا الخبـر**
وهيىء مكانيهمـا في التراب	**فان ركابيهمـا منتظـر**

وعلى ذرا لبنان التى عشقها البلبل وصدح لها وهام فى رباها ، وقف شاعرها الأخطل الصغير ، وقد جاء الخريف وافتقـد البلبل ، فتطلع الى الأفق ، عله يرى عله يسمع ، ثم هتف من من أعماقه :

قف فى ربا الخلد واهتف باسم شاعره

فسـدرة المنتهى أدنى منـابره

ولكن الرياح لم تردد الا الصدى ، فقد رحل رحلته الأبدية وزوبعت الأركان بريش جناحيه .

وجاء يوم الاربعين فرفعت الستار بمسرح الازبكية (١) ، عن جوقة كبيرة من الموسيقيين يتوسطهم الموسيقار محمد عبد الوهاب ، واهتزت الأوتار جميعا بنغم حنون من « الصبا » الشجى الحزين الى قراره ، وتهدج صوت عبد الوهاب وهو يردد:

حطموا الاقداح مثلما حطمت حزنا قدحى

ودعوا الافراح طوى اليوم بساط الفرح

خلدوا ذكراه فى كل القلوب خلدوها

مجدوا ذكراه شبانا وشيب مجدوها

عاش كالزهرة عطرا وندى وكسا الفن جلالا خالدا

لن تردوا بعض ما أسداكم ابدا مهما فعلتم ابدا!

واذا ما ذهبت اليوم الى قبر البلبل ، ترد بعض الدين الذى اسداه الى الوطن العربى ، الى المسرح ، الى الاغانى ، الى الأطفال ، الى الفن الخالد ، اليك والى كل فرد ، وجدت على قبره بيتين ينطقان بالزهو وبالأمل :

يا أحمد الخير لى جاه بتسميتى
وكيف لا يتسامى بالرسول سمى

ان جل ذنبى عن الغفران لى أمل
فى الله يجعلنى فى خير معتصم

---

(١) ابولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ١٢٥

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقدمة :	٣
الباب الأول :	
البلبل الصغير	٥
المهاجر	٦
الصبى الموعود	١٢
اللحن القديم	١٩
فى فرنسا	٢٣
الباب الثانى :	
القفص الذهبى	٣٥
فى القصر	٣٦
كرمة ابن هانىء	٤٧
حيرة	٥٥
مع الكروان	٦٩
ساقى الطلا	٧٦

الموضوع الصفحة

زحلة ٨٣

ان الرواية لم تتم فصولا ٨٨

الباب الثالث :

الغـريب ٩٧

فى برشـــلونه ٩٨

الحنين ١٠٥

العـــودة ١١٥

الباب الرابع :

انطلاقة جديدة ١٢١

أوطـــان ١٢٢

طير الحجال ١٣١

الحكيـم ١٣٨

بداية ونهـاية ١٤٥

معارك ١٥٠

تتـــويج ١٥٨

فى الليـــل لما خلى ١٦٦

فى المسرح ١٧٠

الموضوع	الصفحة

الباب الخامس :

اللحن الباكى ١٧٩

دموع البلبل ١٨٠

عقــدة الخوف ١٨٤

النهــاية ١٩٢

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقدمة :	٣
الباب الأول :	
البلبل الصغير	٥
المهاجر	٦
الصبى الموعود	١٢
اللحن القديم	١٩
فى فرنسا	٢٣
الباب الثاني :	
القفص الذهبى	٣٥
فى القصر	٣٦
كرمة ابن هانىء	٤٧
حيرة	٥٥
مع الكروان	٦٩
ساقى الطلا	٧٦

الموضوع | الصفحة

زحلة ٨٣

ان الرواية لم تتم فصولا ٨٨

الباب الثالث :

الغـريب ٩٧

فى برشـــلونه ٩٨

الحنين ١٠٥

العـــودة ١١٥

الباب الرابع :

انطلاقة جديدة ١٢١

أوطـــان ١٢٢

طير الحجال ١٣١

الحكيـم ١٣٨

بداية ونهـاية ١٤٥

معارك ١٥٠

تتـــويج ١٥٨

فى الليـل لما خلى ١٦٦

فى المسرح ١٧٠

الموضوع الصفحة

الباب الخامس :

اللحن الباكى ١٧٩

دموع البلبل ١٨٠

عقدة الخوف ١٨٤

النهاية ١٩٢

